حيدر حيدر

الفيضان

قصص



* حيدر حيدر

* *الفيضان*

* جميع *الحقوق* محفوظة

* *الطبعة الرابعة 2006*

* *الناشـــــــــر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع*

سورية ـ دمشق *5141441*

* *الإشـــراف الفني* : د. مجد حيدر

* *التـــــــوزيع : دار ورد 5141441 ص. ب 30249*

حيدر حيدر

الفيضان

قصص

النمل والقات

عندما زحفت النملة الأولى متسلقة إصبعَ قدمِ محمود بن عبد الله الزبيري، رنا إليها وهو مستلقٍ تحت الشجرة. داهمته ضحكة بلهاء مسترخية وهو يرى هذا المخلوق الضئيل يتسلق جسده الضخم. باسترخاء عذب مضغ مضغة القات ثم حركها في فمه، فشعر بمتعةِ رجلٍ يدغدغ بفمه ثديَ امرأة.

قال محمود بن عبد الله الزبيري لنفسه: آه. كم هم مساكين أولئك المحرومون من هذه الرعشة!

كانت الشمس تتخلل من ثغرات الأغصان، باعثة مع لذات القات نوعاً من الخدر المنعش في جسد الرجل المُلقى بين الظل والشمس، ومن مقهى مجاور انساب صوت مغنية شرقية، ماتعاً، هابطاً به نحو سكونية خالدة.

كان يمتص مضغة القات ويعتصرها بشبقٍ عندما جاءت نملة أخرى تتبعها رفيقتها، وراحتا تتسلقان الأصابع نحو الجسد المُسجّى.

كان صعودُ النملة الثالثة يدغدغه، وإذ قرصته بفمها المتناهي في الصغر، أحسّ وكأن شوكة صغيرة تَخزُه.

قال محمود بن عبد الله: يا للنمل ما أحمقه! وبحركة بطيئة

ناعسة حرك أصابعه لينفض النملة أو يسحقها، غير أن النملة كانت أذكى من حركته. زاغت من مكانها وهبطت نحو باطن قدمه.

تسرّب الخدر إلى خلايا الرجل المستلقي. كان منتشياً بالشمس والقات والصوت العذب المريح لكوكب الشرق. وبعث فيه الخدر رؤى وأحلام يقظةٍ ملونة كقوس قزح. ورأى فيما رأى أنه يطير فوق الحقول والجبال حتى يصل إلى مواطن النجوم، ورأى هذه النجوم وقد تحولت أزهاراً، راح يقطفها ثم يزرعها في عُروته ويختال بها كالطاووس. ثم رأى أن هذه النجوم قد تحولت إلى كراتٍ من الذهب، راح يبيعها في ساحة المدينة ويشتري بأثمانها بنادق وخيولاً وصقوراً وكلاباً للصيد.

ولما سئم من النجوم والذهب والبنادق والصقور، حلُمَ بنساء بيضاواتٍ وجوههن في لون الثلج، وشعورهن كسنابل القمح، ولون عيونهن كلون البحر.

ثم رأى نفسه مرة أخرى فارساً يخترق الريح بيده سيفٌ ورمح، وأنه صار ملكَ العالم بلا منازع، وها هي الأرض تحت قدميه، يأمر وينهي بما يشاء وحوله العبيدُ والجواري والجنودُ طوع بنانه. ابتدأ يتزوج أكثر من امرأة، وخصّص لكل امرأة قصراً وخصص لكل زوجة ليلةً. ولما استقرت مملكته رأى أن عليه أن يتخلص من جميع أعدائه، وفي مقدمتهم جارته القديمة ذات اللسان السليط التي اشتهاها ولكنها صدَّته. جاء بها وحاكمها وطلب إليها أن تركع قرب قدميه عارية، وأن تعترف به ملكاً لا مثيل له في الرجولة والشجاعة، ثم طلب من سيَّافه أن يقطع لسانها ويرسلها إلى عبيده ليناموا معها واحداً تلو الآخر.

ثم أمر الملك السعيد محمود بن عبد الله الزبيري أن يُؤتى له

برجلٍ وصَمَهُ يوماً بأنه عنّين وغبي وأحمق وطلب من جلاديه أن يضربوه حتى يسيل منه الدم، ثم يقطعوا أعضاءه التناسلية ويرموها للكلاب أمام الناس جميعاً.

هكذا بدأ محمود بن عبد الله الزبيري يثأر من أعدائه واحداً واحداً، وهو مستلق فوق عرشه بينما النمل الصغير الحقير يصعد الجسدَ السابح في غيبوبته وأحلامه. كان النمل يشقّ دروبه متقاطراً على مهل وهو يغزوه بطمأنينة.

ها قد بدأت أجفان الرجل تثقل، وراحت الرؤى والتصورات تتراقص وتتنقل من خيال إلى آخر، ومن نجم إلى نجم، ومن جبل إلى جبل، ومن مدينة إلى مدينة، محمولاً فوق ريح رخاء، بينما يسيل صوت المغنية الشرقية العذب، سيلانَ هذا القات العظيم داخل الخلايا العطشى.

نام محمود بن عبد الله الزبيري بينما الشمس بدأت تدخل غيابها، وحمله السباتُ العميق نحو جزر نائيةٍ مليئةٍ بجنيات البحر والكنوز المخبأة. كنوز من الياقوت والماس والقات، ورأى أن جميع هذه الجزر بكل كنوزها وصخورها وشجرها قد تحولت إلى غابة من شجر القات، فطوقها بكلتا ذراعيه وراح يمضغها بوحشية لذيذة.

كان النمل قد تحوّل الآن إلى جيوش. زحفت من كل فجّ عميق فاحتلت جسدَ الرجل الحالم، وراحت تجوس خلاله بحرية مطلقة، وإذ تأكدت بغريزتها النملية أن الرجل قد استوى خارج محيط اليقظة وأن المضغ قد توقف، رَنَتْ إلى ضحكته العريضة البلهاء الساكنة، ثم بدأت عملها الدؤوب بهذه الغنيمة التي تحولت الآن إلى ما يشبه الجثة.

دمشق 1970

الـــرهان

كانوا في المقهى: ثلاثة شباب يجلسون في زاوية من زوايا المقهى. في المنافض سجائر مطفأة وأخرى مشتعلة وبعض الصحف، وحولهم امتدّ الضجيج. جلبة مفلتة في فراغ ضيِّق كابوسي.

كان الثلاثة عرباً؛ كتب على جواز سفر أحدهم: فلسطيني. وعلى جواز الآخر: سوري. وكان الثالث مصرياً. لقد وفدوا إلى المقهى بالتتابع.

ولأنها مدينة صغيرة بعيدة تكاد تكون غريبةً عنهم، كانوا يلتقون هنا، ولأن لا شيء يُعمل في مثل هذه المدن العربية المتزمتة في مساءات العطل والأعياد غير الثرثرة، كانوا يفدون إلى المقهى ويلتقون. هم أيضاً كانوا شبه غرباء، ومع ذلك راحوا يثرثرون كعادتهم وهم يحتسون القهوة.

الفلسطيني يبدو متعباً من خلال وجهه الانهدامي، غير أن أحاديثه تنبئ عن انشراح داخلي تُفصح عنه ابتسامته العريضة. ها هو ذا يتحدث باقتضاب سريع عن امرأة نامت معه قبل لحظات فأعطته متعةً واكتفاء. يقول مفعماً:

ـ المرأة تُغبط الإنسان كحمام دافئ في ليالي الشتاء.

بعد قليل ينتقل إلى موضوع يقول بأنه يؤرقه باستمرار:

ـ ماذا لو اكتشف العلماء أن المريخ صالح للحياة وأن هناك حياة أخرى غير حياتنا!

إنه يؤكد بسهولة مدهشة أن ذلك ليس محالاً، وهذا يعني بشكل ما أن الأرض ربما كانت كوكباً اصطناعياً، وهذا بدوره سيؤدي إلى الشك في أمور كثيرة كانت فيما مضى مسلماتٍ. ويتابع بانسيابية خاصة:

ـ في مثل هذا الوضع الجديد يصبح التاريخ سخرية وكذلك الإنسان.

السوري يبدو مستنفراً أبداً، متحفزاً للغضب لأول بادرة. هكذا يبدو من خلال نظراته الحادة وحركات جسده ويده القلقة، ولعله لم يدرك المرامي التي قصدها جاره، لكنه عندما أشار إلى التاريخ مقترناً بالسخرية، هبَّ قليلاً عن كرسيه ثم هبط. كوّر قبضته الضارية ودقّ بها طرف الطاولة السوداء:

ـ أستاذ. أنت تخرف على ما يبدو. التاريخ لا يمكن أن يكون سخرية. السخرية هي عدم قدرتنا وإهمالنا لتاريخنا. عندما نقرأ التاريخ جيداً يمكننا أن نفهم. المستقبل لا يفهم إلا على ضوء الماضي وهذا ما يعلمنا إيّاه التاريخ.

الفلسطيني طَفَتْ على وجهه دهشةٌ مفاجئة. دهشة مشوبة بسخرية كانت تكتم في الأعماق ضحكة غريبة. لكنه اكتفى بالتحديق في وجه جاره السوري مستغرباً. حاول أن يوضّح ما هدف إليه، لكن الآخر اعترضه صائحاً:

ـ يكفي. يكفي. أنا أعرف ما تريد قوله سلفاً.

احمر وجه الفلسطيني. قال:

ـ اسمع. أنا لم أقل ما فهمت أنت. وأنت لم ترد على ما قلته أنا. وأنا لا أريد أن أوضح ما تعرفه، وأنا وأنت نعرف ولا نعرف شيئاً على ما يبدو.

فجأة انتزق السوري:

ـ أنتم الفلسطينيون...

واعترض الآخر:

ـ ولكنك لم تفهم قصدي. أعني...

ثم اتجه نحو الشاب المصري الذي فتح جريدة راح يتصفحها:

ـ هيه. أنت لماذا لا تتدخل يا أخي؟

وانتبه المصري: أتَدَخّلُ! بماذا؟

ـ بهذه المسألة اللعينة. أعني بهذا التفاهم السيّء بيننا!

ـ أية مسألة؟

قالها الشاب المصري بنوع من الحياد واللامبالاة. وإذ لاحظ الفلسطيني ذلك استدرك:

ـ لا شيء. لا شيء. سوء تفاهم صغير لا معنى له.

بدا الفلسطيني مغتاظاً، كتم غيظه بسيجارة نفث دخانها بعصبية في الفراغ الضنك. بعد صمت قصير حوّل الحديث فجأة:

ـ أعتقد أنها الحرب هذه المرة!

قال جملته هكذا بتلقائية، غير مدرك أنه قد أوقد ناراً أخرى، وخلق مسألة أكثر تعقيداً من مسألة المريخ والتاريخ. وبدأ يوضح فكرته عن الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل. وكان ملخص فكرته بأن الحرب ضرورية لأن الحكام العرب إذا لم يحاربوا فستسقط أنظمتهم التي أطلقوا عليها لقب التقدمية، والشعب لن يصمت إلى الأبد على الكذب والتهريج. من أجل هذا لابد لهم من تبديد غضب الشعب في حرب رابعة.

ولأن السوري الغَضِب أبداً، كان منتبهاً، متوترَ الأعصاب، لم تعجبْهُ الفكرة لذا امتعض معترضاً:

ـ أنت تتحدث عن حرب وهمية. أهؤلاء العسكر جديريون بإشعال الحرب؟ إن الحرب تفقدهم السلطة والامتياز. ثم لنفترض أن حرباً رابعة قامت، فمن سيكون المنتصر فيها؟

كان المصري يسمع وهو يقرأ الجريدة الرياضية.

وقال الفلسطيني: ولكن أنا لم أتحدث عن النصر. لقد قلت: ...

وعارضه الآخر: لا. لا. كلامك واضح. أنت تؤمن أن الحرب سيعلنُها هؤلاء اليمينيون الذين قضوا على اليسار وزجُّوه في السجون ورفعوا راية الدين والقضاء والقدر. إنّ هؤلاء يديرون عجلة التاريخ قرناً إلى الوراء.

انتزق الفلسطيني رافعاً يده:

ـ أنا لم أقل ذلك يا أخي. ثم ما دخل اليمين واليسار في الموضوع؟

السوري قال بثقة:

ـ طبعاً هناك دخل. اليسار هو المؤهل للحرب في حين أن اليمين مناور ومخاتل، يتحدث عن الحرب ملوِّحاً بها لخداع الشعب وتخديره. اليمين عميل، أما اليسار فمتحرر. اليمين جبان، أما اليسار فشجاع يقتحم دون أن يهاب النتائج. اليمين يخسر بالحرب مصالحه، أما اليسار فيربح الشعب والثورة. والمهم في نظره أن يشعل النيران. هذا ما حدث في روسيا والصين وكوريا والفيتنام. بالثورة انتصر اليسار وانهزم اليمين في كل مكان.

يبدو الفلسطيني ممتعضاً. يتميز غيظاً، يريد أن يقول شيئاً معقولاً، شيئاً يبدو له ممكناً، لكن هذا الآخر يمنعه. لا يمنعه فقط إنما ينعطف به نحو أمور أخرى بعيدة، وربما مختلطة سمعها وحفظها وها هو يرددها بآلية في فضاء المقهى. للمرة الثانية يستنجد الفلسطيني بجاره. يقول للمصري:

ـ يا أخي. أنت لماذا لا تشارك؟ أتعتقد أن حديثنا هامشي إلى هذه الدرجة؟

مرة أخرى انتبه المصري. قال: عن أي شيء تتحدثان؟

ـ عن الحرب واللاحرب.

أوضح السوري: أبداً. عمن يوقد الحرب!

وقال الفلسطيني: ولكن أنا يهمني اندلاع الحرب وليوقدها الشيطان.

وقال السوري بحسم: أما أنا فيهمني أن يشعل اليسار الحرب.

وقال الفلسطيني: أنا كنت أتحدث عن حرب قادمة لابد أن تحدث.

وقال السوري: وأنا كنت أتحدث عن حرب لا تقوم إلا باستلام اليسار للسلطة، وما دام اليسار غائباً فالحرب مستحيلة وقد ضربت أمثلة.

وقال الفلسطيني: ولماذا لن تقوم؟ كل التصريحات والدلائل تشير إلى ذلك. إسرائيل لن تبقى في هذه الحالة السائبة.

لأول مرة حاول المصري الإدلاء برأيه:

ـ لعل إسرائيل يعجبها هذا التسيب. إنها تثبت أقدامها على ما أعتقد فيما احتلته داخل حالة اللاسلم واللاحرب.

السوري ارتعد: القضية ليست هكذا أبداً. المسألة هي الثورة! والثورة تكون أو لا تكون. والثورة تعني الحرب والحرب هي الثورة. ومادام اليسار خارجَ الحكم فالحرب والثورة ضميرٌ مستتر تقديره ـ كما قلت ـ وصول هذا اليسار إلى السلطة. هكذا حدث في...

أكمل الفلسطيني: في روسيا والصين وكوريا... إلى آخر المصطلحات والمحفوظات المسجّلة في أرشيفكم الثوري. إنك تنسى، وأنت تردد درسك الميكانيكي، أن اليسار شراذم ممزقة تعلنُ حروبها الجانبية بينما الوحش يبتلع الجميع على مهل.

بدا الفلسطيني في أوج غضبه. أخيراً فجر قنبلته. كانت المسألة قد احتدمت فلم يكتم السوري كلمة «يميني» أطلقها في وجه الفلسطيني، بينما تمتم الفلسطيني كلمة: «أهوج».

ولكي يعادَ الهدوء قليلاً بين متخاصمين في مقهى، في مدينة غريبة، بين أناس بدوا كأنهم الآن غرباء، رمى المصري جريدته. أشعل سيجارة ثم قال باتزان بارد:

ـ ما رأيكما برهان؟

قال السوري: رهان؟ وماذا يعني هذا؟ أنراهنُ من أجل قضية واضحة كالشمس؟

ردَّ المصري: نراهن من أجل الحرب أو اللاحرب.

قال السوري مستعجلاً: أنا أراهن بقطع ذراعي.

المصري بفكاهة معهودة: اليمين أم اليسار؟

قال السوري جاداً: اليسار. وأشار للفلسطيني: وأنت تراهن باليمين؟

ابتسم الفلسطيني بقرف: أنا ما عاد لي لا يمين ولا يسار لأراهن بهما.

ولكي يُحسم النقاش الذي طال بلا جدوى: «لنقترح رهاناً». قال المصري.

انتعظَ السوري بحزم: لنراهن بالرؤوس التي تتنطع لحرب ليست أهلاً لها.

الفلسطيني قال وهو يحك صدغه:

ـ لا تضخموا الرهان. من كبّر الحجر ما ضرب. ليكن عمن يدفع ثمن القهوة عن الجميع.

قال المصري وهم يتأهبون لمغادرة المقهى:

ـ موعدنا إذن هنا في عيد رأس السنة القادمة.

الذئاب

في ساحة المدينة المضاءة والليل سَجَى، وثمة مطرٌ خفيف تحمله ريحٌ باردة، كان الرجلان يتسكعان تحت الضوء والشجر.

بدا الوقت شفافاً شجيّاً تحت الرذاذ الهابط، ومن خلال فتحات الأوراق الخضراء اللامعة.

قال أحدهما: ما أعذبَ الليلَ والمطر في المدن الغريبة.

الآخر لم يقل شيئاً. كان يرنو إلى السماء الكامدة السحيقة.

وسأل الآخر: بماذا تفكر؟

وقال الآخر بتلقائية: بامرأة. واستمر الأول: لو أن للإنسان بيتاً مريحاً يؤويه في مثل هذا الوقت!

فوقهما كان الفضاء قاتماً على ارتفاع مسافة الضوء. وعَبَرا ممر الأشجار المتعانقة كمظلات خضراء.

كان أحد الرجلين قد قضى معظم حياته في فنادق الدرجة الرابعة، حيث يتجاور النوم مع الطعام والتبول، وكأن الإنسان مازال في رحِمِ أمه. وانبرى رجل الفنادق يتحدث عن أحلامه التي تحولت إلى ساحاتٍ وغرفٍ واسعةٍ وبحارٍ. وسأل:

ـ لماذا يرى نزيلُ الفنادق البحرَ في أحلامه؟

ولأن الآخر لم يكن يفكر لا بالفنادق ولا بالبحر ولا بالأحلام، جاءه السؤال مباغتاً. بدا كأنه ليس معه. كان ينظر إلى أوراق شجر الساحة وقد تلألأت أكثر اخضراراً تحت المطر الذي غسلها. كانت الأوراق تلمع لمعاناً غريباً بين العتمة والضوء، بينما الجذوع الرمادية ترشح بالمطر.

فجأة قال الآخر الذي بدا وكأنه يطرح أسئلة على نفسه:

ـ إذا حدثت الحرب هذه المرة سنغادر هذه المدينة اللعينة إلى غير رجعة.

ـ هل قلت الحرب؟ (سأل الآخر منتبهاً).

أجاب رجل الفنادق: أجل. لابد أن تكون قاسية هذه المرة. ألا تعتقد أنها ستكون الأخيرة؟

ولأنه لا يريد جواباً، راح يوضِّح فكرته عن إمكانيات العرب وقدراتهم الخلاقة، والتغيّر الجديد الحاسم الذي حدث بعد الحرب الثالثة، وختم فكرته بحكمٍ قاطع:

ـ لابدّ من النصر هذه المرة. سيقول التاريخ: كانت هناك إسرائيل.

موجة صقيع عبرت الساحة جاءت بها الريح. الآخر تلفَّعَ بمعطفه. كانت حجارة الساحة تلمعُ هي الأخرى بالمطر والضوء. المدينة شبه مغلقة. ثمة صمت مغلف بغلالة حزن شفيف سرّي يوشِّح الأبنية. وحدها الخطوات تسمع بخفوت فوق الإسفلت.

وسئل نزيل الفنادق مرة أخرى على نحو مباغت: بماذا تفكر؟ فقال بهدوء: برجل اسمه سرڤانتس.

في طرف الساحة الشرقي سمقت شجرة صنوبر، عالية، عالية، بدت عن بعد كماردٍ. كانت هناك ممتدةَ الأذرع في فراغٍ صاف. شجرة بديعة، أفريقية ذات جذع ضخم.

على حين غرة ظهر من وراء جذعها شبحان. اتجها نحو الرجلين ثم ظهر شخص آخر. عندما اقتربت الأشباح توضّح شكلُ امرأتين ورجل. قال رجل الفنادق:

ـ سائحتان!

كان الرجل الذي تبع الفتاتين يعترضهما الآن. ثم ظهر فتى آخر وانضم إلى المجموعة. بعد لحظات اندفع ثالث ورابع.

كانت السائحتان ترتديان معطفين أسودين لامعين. وبدَتا

محرجتين وهما تتحدثان مع الرجال. في لمح البصر وكأن رائحة الفتاتين قد انتشرت عبر الساحة، اندفعت قطعان من الفتية. وبدأت عملية تطويق الفتاتين على نحو مثير مقرف. أحسّتا بهذا الغزو المهدِّد. مدّت إحداهما ذراعها فاتحةً بصعوبة ممرّاً في الطوق ثم اندفعت مع رفيقتها خارج الحصار.

الرجل الأول أسرع فتأبط ذراع إحدى الفتاتين بينما اندفع الآخر فتأبط الأخرى.

الذين تبقوّا جَرَوا صائحين خلف الفتاتين. كانت الأصوات تدوي بهدير وحشي حارّ. وراح الموكب يتنامى ويدوي غامراً أرض الساحة والضوء والمطر.

خلال لحظة شبيهة بمشهدٍ مسرحي، انثقبَ الهدوء والصمت. تحوّل إلى هرج وضوضاء ونزاع. وتحت رذاذ المطر كشفت الساحة عن وجه آخر، صاخب، مؤلم، شديد الوحشية.

هناك وسط الساحة بين ممرّ الأشجار الخضر، حدث شيء جديد آخر في ليل المدينة الغريبة. كانت المجموعات المتدفقة باتجاه السائحتين قد دخلت في شجار حادّ، راحت تنبئ عنه الأصوات القاسية التي تُذكّر بدوي الغابة البدائي، وبدأ ذلك الدويُّ البربريّ يرجُّ أطراف المدينة. لقد كان واضحاً للرجلين المتفرجين، أنّ الفتاتين تُغتصبان الآن تحت الضوء والمطر في ساحة المدينة الغريبة.

الحرب

بين المقهى والساحة شارع. الرجل الذي قطع الشارع بعد مغادرة زميليه المقهى، وألقى قدمه اليسرى فوق حافة الرصيف

المقابل، تعثَّر، كان يرتدي معطفاً جديداً وفي معصمه ساعةٌ ومعه باقةُ ورد. لم يتمّم خطواتِهِ. على حافة الرصيف طُعن بسكين في ظهره، الطعنة وصلت القلب، لذا لم يحَتجْ إلى أخرى. نزعوا ساعته ومعطفه وهربوا. حين حضرت الشرطة تستطلع شجارَ الساحة، رأوا رجلاً مطعوناً ينزف، وقربه باقة وردٍ تناثرت أوراقها فوق بقع الدم. سأل الشرطي زميله:

ـ أتعتقد أن في الأمر جريمةً؟

قال الآخر: لابد أنها حكاية مراهقين حدثت وتحدث دائماً.

ـ ولكن لابدّ من تحرير ضبط بالحادث!

ـ ضبط غامض، ككل الضبوط الأخرى. حَرِّرْ.

الجزائر 1971

الـزوغـان

من هناك الطريق إلى الجبل الأخضر. لست أدري من الذي قال لي ذلك. إنني أسير منذ زمن طويل كمن يمشي في حلم. نبوءة قديمة قالت لي ذلك لابدّ. هَجَسَتْ لي مذ كنتُ هناك في الكهف المظلم. قالت: عندما تملك القدرةَ على المشي تتجه من هناك. في الطريق تلقى عجوزاً في يده عصا يجرها وراءه تاركاً لك علامات. تتبع العلامة فتوصلك إلى شعاب الجبل.

منذ الصباح وأنا أسير. دروب الأرض أكلت قدمي وأنا أسأل عن العجوز والعصا واتجاه الجبل، لكن الناسَ لم يسمعوا أسئلتي. كانوا يعبرونني ويمضون.

منذ انقطع ذلك الخيط السري بيني وبينها، بعد أن لعنت أبي وزغردت في يوم مقتله، تركتها. لم أعُدْ أستحقُّها. كنت أشعر أنني الوريث البكر وأن لعنتَها تطاردني في اليقظة والحلم، لهذا أحسست أنها لم تعد تستحقني هي أيضاً.

إنني أضربُ منذ الفجر الأول في تيه هذا العالم، بحثاً عن دربِ جبل أخضر ورعاةٍ غرباء سمعتُ عنهم في طفولتي الأولى.

أنا الآن إذن بلا أب، بلا أم، أكاد أقول بلا وطن. وفي هذه الحالة الغريبة يمكن للإنسان أن يكون أي شيء.

عندما غادرتها في مساء ذلك اليوم الحزين نظرت إليّ بازدراء وقالت: لقد خرجت من نفسي إلى الأبد. ووراءك حجر أسود. ستموت منبوذاً ككلب.

لم أقل شيئاً. فقط كنت حزيناً كغصن بُتِرَ من شجرة.

ها أنذا أسلمُ نفسي لدروب هذه الأرض، حتى الجهات الأربع أضعتُها. إنني أبدو كمن عُلِّق في فضاءٍ فارغ في مهبّ رياح عاتية، شبيهَ هؤلاء البشر السارحين. يمشون في هذه الساحة، يتصادمون فجأة، ثم يلتفّون، ثم يتقاطعون. أعتقد أنهم يسيرون لأن الأرجل خُلِقَت للسير. أسأل أحدهم عن الجهات فيقول لي: ولماذا تسأل؟ يكفي الإنسان نعمةُ الأرجل. الشمس. انظر إلى هذا الضياء الساطع.

ولكن أين يقع الجبل الأخضر والرعاة و...

وبرغبة حارقة أحاول أن أحكي عن أمي وعن العجوز والعلامة، لكن الرجل يمطُّ شفتيه ويمضي هارباً، مندفعاً في الزحمة.

منذ أعوام ما عدت أذكر بدايتَها، بدأ هذا الزوغان. صوت خفي نَبَتَ في الرأس ثم انتقل إلى الصدر فالقدمين، وها هو يتحول إلى طاقة مندفعاً بي عبر هذه الصحارى.

غير أنني أرى مدناً وبحاراً وبشراً، كلها مفعمةٌ بطاقة تُبدّد في ضياء ساطع. أحاول أن أجد علاقةً ما بين الصحارى المقفرة وهذه المدن الجديدة القائمة هنا، فأعيا.

يبدو أن ذاكرتي لا تعمل كما ينبغي. صوت موسيقى بعيدة تشبه الأنين تصدر من الطرف الأقصى للذاكرة: شيء ما يموت في مكان بعيد.

أقول هذا وأنا أسير على رصيف مدينة غريبة. يلقاني رجل رأيته في مكان آخر. ها هو يلقي عليَّ بعض الأسئلة. إن ساعتي معطلة ولهذا يصعب عليّ التعرف عليه. يذكرني بأشياء قديمة. بأزمنة مضَتْ: بحار. بنادق. اجتماعات سرية... غير أنني أقول له: إن أمي أصبحت زانية بعد مقتل أبي، وأن جميع رجال العالم ينامون الآن عراة في فراشها، وأنني طفل ملعون خرجْتُ من ضلعها في الشهر السابع، وفي أذني دويٌّ عن أرض خضراء وعجوز يجر وراءه عصا متجهاً صوب الجبال. وأقول أيضاً بأنني أبحث عن شيخ يأخذني إلى حيث يقيم رعاة لم يعرفوا المدن. ولكنه يهمس في أذني بأن اجتماعاً سرياً يُقام في مكان ما من المدينة وأن علي أن أذهب إليه. هناك أمر هام وخطير ينتظرني. وأسأله وأنا مأخوذ بالضياء الذي سطع أكثر الآن، وبالحركة السائبة للبشر: أين تُصَلَّح الساعات المعطلة فساعتي لا تشير إلى الوقت وأنا أشعر بحزن عميق لهذا التوقف: آه. لماذا تتوقف ساعة الإنسان عن العمل؟

ها أنذا أدخل مقهى وأطلب قهوة. بعد لأي يفهم النادل أنني طلبت شيئاً ما يُشرب.

يدخل رجل غريب لم أره في حياتي، يتناول كرسياً ويجلس قربي. ينظر إليَّ ثم يتحدث للنادل بلغة غريبة. بعد حين يوضع أمامي شراب غريب. أحاول أن أسأل أو أحتجّ. الرجل الغريب يضع إصبعه على فمي: انظر إلى نفسك كيف ترتعش من البرد! هذا شراب منعش.

- آه... ولكني لا أعرفك. من أنت ومن أين أتيت ولماذا...؟

- دعْكَ من الأسئلة. هنا لا أحد يسأل لماذا حدث أي شيء. أنت غريب وأنا أعرف الغرباء من عيونهم الضائعة. إنها مهمتي.

يدهشني كلام هذا الرجل. أرغب أن أفتح معه حواراً وأنطلقَ في الحديث عن الصحارى والواحات ورعاة الجبل، وأمي التي فتحت ماخوراً لا مثيل له في القرن العشرين، وفروع هذا الماخور، والقدرة الخطابية اللامثيل لها لقوّاديها المفوَّهين وهم ينادون المارة للدخول.

ثم أحاول أن أعرج على أحاسيسي العامرة بالحزن والعار، غير أن الرجل يكتفي بهز رأسه. يتناول جريدة. يقرأ صفحة الرياضة ثم يقول بغتة: إن محمد علي هو أعظم رجل في العالم انظر كيف يصنع الإسلام. محمد علي لن يُهزَم أبداً. يقيناً لو عاد الإسلام لقهرنا العالم وفتحناه من جديد.

بدعابة أسأله: ولكن هل سيزور محمد علي كلاي القدس في هذا العام ليصلّي في المسجد الأقصى؟

صوت الموسيقى يعود. يتغلغل في غابة الذاكرة كنشيج طفل اغتُصِبتْ لعبته، هي ذي ترتقي بي. تنقلني الموسيقى إلى أرض أخرى. ترميني خارج المقهى. تقول لي: أنت وحيد.

الدنيا صقيع يدخل إلى نقي العظام، والضياء ساطع. نساء يعبْرنَ، في عيونهن المبرقة ومضٌ وحشي. إنني أرتعش من البرد ومن هذا الشعور المباغت بفقدان الأمان، غير أن هذا لا يمنعني من التحديق في اللحم الأسمر العاري، المغتسل بهذا الضياء المدهش. أتذكر أن هذا منبثٌ فيَّ من ميراث أمي. آه. أمي التي تزني اليوم في الظهيرة تحت سمع وبصر العالم. عارية تنادي

تحت سطع الشمس: أنا عاهرة القرن العشرين لأن زوجي مات وأبنائي تركوني ورحلوا.

كيف أخرج من حالتي هذه؟ من هذا الرقص الحالم واليقظ والمتداخلِ للحركة والصوت والألوان والروائح. الموسيقى في الدماغ المحموم. ألوان خيوط الشمس المتموجة بمليون لون فوق المروج والبحار. أصوات الأنين الداخلية في المسامّ. مسامّ الإنسان ومسام الأرض التي تتوجع وتصيح بلا صدى. حركة هؤلاء البشر الذين يسيرون هنا وهناك كقطيع بلا كلب ولا راعٍ. قطيع داهَمَتْهُ الذئاب ذات ظهيرة فتشتت وضاع عن مراعيه.

قلت لنفسي: إنك جائع وعليك أن تأكل.

في الطريق صحبني رجل بدا عليه الجوع. تعرّف عليّ وأنا لم أراهُ من قبلُ. قال: أنت جائع مثلي. هيا نأكل!

كمن يسير في نومه تبعتُ الرجل. عبر الطريق وفي المطعم ثرثر لي عن تاريخه المضني مع الكتب والتشرد والجوع والفسق السري. أكلت لحماً كان لذيذاً. وأذكر أنني كنت عطِشاً وبحاجة إلى كأس نبيذ غير أنه لم يَسْقِني. حين سألت: لماذا؟ قال: النبيذ حرام في بلاد المسلمين.

بدعابة قلت: ولكن المسلمين هم أكثر البشر استهلاكاً للخمور!

قال: في السرّ لا في العلن.

في المطعم كان هناك أناس غرباء يأكلون بشراهة. كانت أصواتهم تشبه مويجات الزئبق المتصادمة، لكني لم أكن أفهم شيئاً من هذه الأصوات. سألني الرجل مما أشكو في هذه المدينة.

فقلت: أنا بحاجة إلى امرأة.

قال: هنا نساء للبيع.

قلت: هل المبغى بعيد؟

قال: أنت في المبغى!

ثم سألني عن الوقت فقلت بأن ساعتي معطلة، وهي لا تمشي منذ زمن طويل، وهذا يسبب لي الكثير من الغمّ. رغبتُ الاسترسال نحو أمور دقيقة لها علاقة بالزمن والموت، والحياة القديمة والحديثة، والأشياء التي تُفهم والعصيّة على الإدراك، لكنه لم ينتبه إلى ما أريد أن أقول فاعترضني وانهال عليَّ بأسئلة أخرى غريبة عن باكونين وتروتسكي، وسألني أكثر عن غيفارا، غير أنه لم يسمح لي بتوضيح أفكاري فقلت بأنني لا أفهم لماذا يطرح عليّ هذه الأسئلة. وانبرى يوضح لي أن هؤلاء كانوا عظماء وأننا بحاجة إلى أمثالهم. وأذكر إنني سألته مازحاً أو جادّاً: ولكن هؤلاء هل كانت ساعاتهم معطلة؟

وأخذ الأمر بجدِّية، فقال بثقة: ساعة غيفارا تعطلت من البرد في أحراش بوليفيا. الجبال هناك مرتفعة ومكسوة بالثلوج.

ولا أدري لماذا قلت: من أجل هذا مات الرجل حزناً.

وسألني إنْ كنتُ حزيناً. فقلت: أنا بحاجة إلى امرأة. فقام وقادني. في الطريق تحدث لي عن الأحياء المظلمة والمخيفة التي نعبرها. أزقة قديمة ذات رائحة حامضية. هي ذي تتلوى صُعُداً وقد أقفرت إلا من الصمت. هدوء رصاصي يخيم عليها. عاودني حس عدم الأمان وأنا أعبر هذه الطرقات الموحشة.

ها قد بدأت الموسيقى الداخلية من جديد. أصداء قديمة

مجهولة تنبت في مروج الذاكرة. إنني أعرف هذه الطرقات، كانت دروبي في الزمن الأول. لابد أنني حَبَوْتُ يوماً هنا. أكثر من طفل كنا هنا. مارسنا لعبة ما اسمها عسكر وحرامية. كتبنا كلماتٍ على الجدران لابد أنها امحّت الآن، ثم جاء عدد من الجنود ومعهم بنادق وعصيّ قصيرة. إن ذاكرتي لا تريد أن تعمل على نحو متألق. سألني الذي معي: لماذا تحدق في الجدران؟

قلت: هل طُليت حديثاً؟ ثم سألته أن يحكي لي ما يعرفه عن هذه الأزقة فاكتفى بقوله: كانت فيما مضى محرَّمة على الأعداء. كانت مغلقة وكل من يدخلها كان يموت. كانوا يسمونه الحي الجهنمي.

من المقصورات المجاورة انبعثت موسيقى وأغنيات شعبية عامرة بالحزن. سألته فقال: أغاني تصدر من المبغى. وتجاوَزَنا رجل له شوارب كثَّة فقال الذي معي فجأة: هذا الرجل القوّاد خائن قتل أباه المجاهد إبّان الثورة.

كان الليل قد أوغل. وكانت الجلبة في الخلف، أصداؤها ما تزال تلاحقني غير أنها هنا تبدو أخفَّ وطأة. لابد أنهم مازالوا يسيرون هناك باتجاهاتٍ متصالبة ودائرية ومائلة، شبيهَ زوبعةٍ غبارية تدور وتدور حتى إذا صادفَتْ نِثاراً من القش حملتهُ ومضت. غير أن هذه الموسيقى ترفض أن تكفَّ عن العزف في الأعماق الداخلية.

أنشوداتٌ ذات إيقاع حزين متواتر لرجل يموت في مكان ما، في غابة أو في مدينة بعيدة. رجلٌ فُصِلَ عن رحمِ أمه يناضل خارجَه لكي يعود إليه.

تعتريني فكرة مخيفة: إن هؤلاء جميعاً ربما تدفقوا من

رحم أمي عبر أزمنة متعاقبة، ولكنني لا أعرفهم. لقد رضعوا من حليبها وكل منهم يبدو متوائماً مع ولادته الطبيعية. ولدوا في تمام الشهر التاسع وكان القمر بدراً. يوم ولدتُ في الشهر السابع كان القمر محاقاً. هكذا قالت أمي. وقالت أيضاً إنني رفضت أن أتناول ثديها فأعطتني لامرأة أخرى. سألتها كيف خرجتُ في الشهر السابع فقالت: لم أطلْقِكَ خرجتَ من خاصرتي بعملية قيصرية.

إنني أتذكر الآن أن هذا ربما كان السبب في عطل ساعتي التي لا تسير. في الشارع شبه المظلم، انضم إلينا رجل آخر. قال إنه يعرفني جيداً ويعرف لماذا أتيت إلى هنا، وإننا عشنا معاً في زمن مضى. آه. إن ذاكرتي ماتزال لا تعمل كما ينبغي. كم يسبب لي هذا ضيقاً وحرجاً، أمام هؤلاء الناس الذين تشرق عليهم شمس ساطعة، وتسير ساعاتهم بانتظام ودقة، والذين يبدو عليهم أنهم يعرفون آباءهم، فلا يتعبون مثلي في البحث عن عجوز معه عصا يجرها وراءه يريد أن يصحبني إلى مواطن رعاة الجبل.

قال الرجل بلا مقدمات: آ. لابد أنك تتذكر. كانت أياماً يانعة... ولكن... وانطلق يتحدث عن أمور وحوادثَ قديمة لابد أنها سقطت مني في الطرق المظلمة من الذاكرة. ودخل الرجلان في نقاش خَمّنتُ أن حدّته سترتفع، وأن عاقبته لن تكون محمودة. كان الرجل الثاني قد بدأ الحديث عن الصحراء وأزمنة الصحو، يوم كانت الدنيا فراشاً من الضياء، وكان البدو شجعاناً وكراماً. قال: كان الأعرابي يصيح بالخليفة دونما وجلٍ: لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بحدِّ سيوفنا.

وقال الآخر: بَدْوكَ هؤلاء كانوا يصنعون آلهةً من تمر

ويعبدونها. وردّ الرجل الثاني: لكنهم عندما كانوا يجوعون كانوا يأكلونها. واندفع في حديث مسهب عن غضب وثورة الرجل الذي نفي إلى الصحراء ومات هناك تحت القيظ دفاعاً عن العقيدة والمبدأ: من منّا الآن في مثل عظمة أبي ذر؟ لقد سقطت الأصالة في هذا القرن. أنا أعتقد أن العودة إلى الصحراء وحدَها المنقذُ.

عندما اشتبك الآخر معه، وارتفع صوتاهما حادَّين في الفضاء، فكرت بالناس، بهؤلاء الناس المنفيين داخل جلودهم. وددْتُ أن أسأل الرجل: هل تعتقد أن أبا ذر وحده الذي ذاق مرارة المنفى؟ لكن الرجل كان منهمكاً في الرد على الآخر الذي راح يتحدث بجنون عصبي عن دور الاقتصاد في التاريخ.

إن رجلاً لا مرئياً يكمن هناك، منطوياً على نفسه في ظلمة سحيقة. رجل معزول عن حركة التاريخ والفعالية الاقتصادية ونجاوى الصحراء وضياءاتها. رجل بلا أم ولا أب ولا أخوة ولا ماض ولا حاضر ولا مستقبل. رجل بلا وطن يصرخ وأمواج الموسيقى الحزينة تبدأ: أريد امرأة!

أحاول أن أتذكر وأنا داخل هذه الغيبوبة وجه أبي فلا أقوى. قالوا لي إنه كان يشبه الرعاة، وإن صدره كان بصلابة جذع سنديانة، وقال آخرون: كان يشرب الخمر ويصلي وإن أمي كانت تكرهه، وروى آخرون بأنه كان عنيناً!

ها نحن نجتاز عتبة باب حديدي. أرى فيما أرى امرأة تمد يدها تطلب مالاً. امرأة عجوز مقفلة الفم، في وجهها غضون عتيقة، وأمامها مبخرة تنثر عليها غباراً فتصعد منها روائحُ قابضة للقلب. تجهد ذاكرتي لتذكر هذه المرأة التي رأيتها الآن. ذاكرتي مغطاة بغشاء كتيم. المرأة تأذن لنا بالدخول. ثمة دهاليز

تشي برائحة حامزة. سقف البناء منخفض. إننا ندخل منحنين داخل هذه الدهاليز الغريبة. موسيقى حزينة لناي ترافق طبلة، تنبثق من الأروقة الداخلية. يقول مرافقي: الحِداء. أتسمع؟

عَبَرْنا. رواقٌ يؤدي إلى رواق إلى آخر وكلها ملتوية. ها قد ارتفعت أصوات الموسيقى، وطغت رائحة البخور على الرائحة الحامزية. في الجو ضباب من دخان. بتوجس وخيفة نمشي على رؤوس أصابعنا. ماض سحيق يرتقي الدرجات السفلى للأعماق. بيت قديم يشبه كهفاً في صخرة في مكان آخر. رجل مسجّى على فراش الموت. مجموعات بشرية لا أعرفها تشعل بخوراً وتهيء ثياباً بيضاء وخضراء لرجل جريح ينزف. الكلُّ حزين وجهم. أمي يفضح فرحَها، صوتُها الخالية نبرتُه من الأسى. ثمة نحيب غامض عميق يخرج من جدران البيت. أمي تستعجل الحضور لإنهاء طقوس الجنازة والرجل لما يمتْ بعدُ.

آه. إن قلبي يكاد يتوقف عن الوجيب. تماماً كهذه الساعة الصامتة. أشعر أن جوّ المكان يتغلغل في مسامي. الروائح والدمدمة الخفية، والحركات المنبئة بشمس توشك على الغياب. كيف ولدت هذه الحركة المباغتة لالتفاف وتداخل الزمن؟

فجأة أطلت قاعة دائرية. كان الناس هنا. جميع الناس لكأن الأرض قد ولدتهم للتوّ هنا. كذلك كانت موسيقى الناي الحزينة. على الحواف فوق مقاعد من الحجر الرخامي البارد، انتشرت نسوة. بعضهن راح يتأرجح في أحضان رجال بحركات مبتذلة ومصنوعة. وفي الوسط قام عمود موشوري أملس مغطى بمرايا. كان العمود يخترق السقف وأرض القاعة، وعلى الحيطان امتدت مرايا.

ولكن لماذا أبدو أنا في هذا الوضع الغريب؟ ولماذا ليس باستطاعتي استيعاب حركة الزمن والمكان؟ ستار شفاف ملون بلون أضواء القاعة، يشبه شبكة يقوم بيني وبين الأشياء. إنني أرى الحركات وأسمع الهمس وأشم رائحة الغُلمة. لقد بدأ الناس الذين كانوا يسيرون بحركات عشوائية كالخذروف يصبّون هنا، وفجأة تتوقف حركاتهم. ها هم يدخلون من الأبواب عابرين الأروقة كفراش يؤم الضوء. يدخلون بصمت وتوجس، عيونهم تلمع في الظلمة وتحت الأضواء الخافتة الزهرية ببريق لا مثيل له. إنني أراهم يشعُّون بوهج عميق وسري كآلهة أوقدت أعماقها بنيران وثنية.

امرأة تجثو على الدرج. أرى ما بين فخذيها في المرآة. إنها تجثو منتظرة.

امرأة أخرى تهبط الدرج في ثوب يشبه ثوب الآلهة الإغريقية، هي ذي تتكئ على الجدار المُمَرأى. ثوبها القصير المعلّق على كتفيها العاريين مشقوق الجانب. خط جسدها الجانبي يلمع تحت الضوء منساباً في تكوين بديع.

جميع العيون تُسقِطُ أشعة متشعبة تلتقي في محرق واحد: الجسد. هناك. لا صوت. الصوت حركة هاجسة تحدثها الأيدي والأرجل والشيء الذي ينفث في الخلايا ويتصاعد. لقد بدأت معادلة الصعود والهبوط بإيقاعها المتواتر الرتيب. بإيقاعها الميكانيكي.

ساعة المرأة التي تتكئ، وساعة المرأة التي قامت الآن وخلفها رجل يصعدان الدرج، وساعة المرأة التي تتلقى النقود بتلقائية باردة، وساعة الأجساد المغتلمة تحت السقف الواطئ

الباهت، بدأت كلها تعمل الآن. لقد بدأت ورشة العمل وصمتت موسيقى الناي. زمن يهبط وزمن يصعد. ضوضاء خافتة ومنتظمة هي ذي تعلو الآن في هذا الهزيع الأول من الليل. ساعتي وحدها ترفض العمل.

مات أبي الآن.

كل دروب الأرض التمعث في ذهني مذ أغمضَ عينيه وراح.

موسيقى الجنازة ارتفعت. ها هو يُحْمَلُ فوق الراحات. ساعة عمل أمي دقّت الآن. إنها تحتفل بغبطة امرأة مات سيدُ وقتِها. وحدي سمعت زغردتها إبان الغسل. كانت الزغردة تقول: أنا مباحة الآن. وكانت تقول لي أيضاً: ستُلهِبُ دروبُ الأرض قدميك بحثاً عن روح لا تُبعث.

قال الرجل الجاثي جواري: كم كانت رائعة!

كان يتم حديثاً بدأه لم أنتبه إليه، قلت: من هي؟

قال: المرأة صاحبة النزل.

قلت: أين هي؟

قال: تحيا وحيدة في الطابق الأعلى.

قلت: أتعرفها؟

أومأ برأسه، وراح يحدثني عن الزمن الذي عرفها فيه، وعن جمالها البدوي والوشم المزين لأنفها. وإذ ذكر الجُرحَ القائم في خاصرتها اليسرى، شالت الموسيقى الغريبة موجعة، تعزف لرجل يموت في الطرف الأقصى من ذاكرة العالم. على الشبكة الشفافة بيني وبين العالم بدأ رقصٌ واهتزاز يشبه سقوط نيازك ملتهبة من قاع سماء بعيدة مضاءة. كانت هناك الجبال الخضراء

والرعاة الوحيدون، وقلبي الذي يدقّ متدفقاً بعاره الدموي. جميع الرجال الذين التقوا بي في الشوارع تحت النهار المضيء كانوا قد وفدوا إلى المكان. هم أيضاً جاؤوا إلى الحفل المبهج ليرتاحوا من عناء السير ولينسوا متاعب النهار. وفدوا ليناموا بكل ما تطلبه أجسادهم من غبطة في نزل أمي التي كانت فتية وبهية كالحقول. لم يعرفني أحد منهم هنا. كذلك لم يبدُ على أحدٍ أنه يعرف الآخر. عيونهم تائهة تتألق بالحزن والغربة والشوق إلى امرأة.

كنت الآن أعرفهم جيداً، شوقي إلى فخذي امرأة تلاشى. لقد بدأت ذاكرتي تتّقد وساعتي تعمل.

سألني الذي إلى جواري: ألم تختْر واحدة بعد؟

لم أجب. بهدوء نهضتُ، وبصمت وسكينة اجتزتُ الدهاليز والأروقة، وكالطلقة اندفعتُ من الباب نحو شوارع العالم المقفرة.

الجزائر 1972

أغنية حزينة لرجل كان حياً

صباح هذا اليوم خرج الطاهر الأخضر من حفرته. نظر إلى الشمس المضيئة وإلى الجبال والبحر فأحس الغبطة تسري في مسامه. تنفس الأخضر الصعداءَ واستنشق الهواءَ العابقَ برائحة البراري ثم قال لنفسه: لابد أن نومي كان طويلاً على ما يبدو.

بحث في الحفرة عن بندقيته وسكينه فلم يلقَ لهما أثراً. قال: سأحاول اغتيال أحد جنود الأعداء والاستيلاء على سلاحه.

في طريقه، وهو ينحدر بين الأدغال، قطع غصناً غليظاً والتقط حجراً صلداً من الصوان شبيهاً بخنجر سَنَّه بالصخر ثم دسّه تحت ثيابه، وراح يتسرق حذِراً بحثاً عن الجنود.

أحس الأخضر بالجوع فقطف بعض ثمار البلوط والمانجا البرية، وصادف نبعة ماء فشرب حتى ارتوى: هذه الأرض ماأخصبها!

قال ذلك بحبور داخلي. ثم أردف: إيه. يا للنعمى التي سيعيش في كَنَفِها الشعب بعد تحرير الوطن من هؤلاء الأوغاد.

حتى الظهر لم يلقَ الأخضر أثراً لعدوّ. كذلك لم يلقَ أثراً للثوار. كانت البراري والغابات تمتد تحت شمس ساطعة، يرينُ عليها صمت لا عهد للأخضر به:

ـ ولكن أين هم؟

خمَّن بأنهم ربما انسحبوا إلى مكان آخر خلال فترة نومه وحاول أن يتذكر مواقع الثوار حيث ينبغي عليه أن يتوجه الآن، غير أن ذاكرته لم تسعِفْهُ.

إن ستاراً من الظلمة الحالكة، يحجب عنه ما قبل لحظة سقوطه إثر ذلك الدوي والبريق الخاطف الذي صعقه وهو يعبث بجهاز اللاسلكي الذي غنمه من الأعداء. وهو يجاهد لتذكر الماضي لمح قطيعاً من المواشي يرعى في السفوح. كان الراعي يجلس مطمئناً فوق صخرة، وإذ اقترب منه دُهِش. لم يكن يحمل بندقية. كان الراعي يدندن أغنية شعبية عامرة بالحب والحزن.

على السفوح المجاورة كان الحطابون يقطعون الأشجار. هم أيضاً بلا بنادق. كانوا يتحدثون لغة الوطن بفرح ريفي.

سأل الأخضرُ راعي الغنم عن اسم الجبال وهذه البلاد. ابتسم الراعي وهو يخبره. سأله: من أي البلاد جاء الأخ؟ قال الأخضر: غريب. تهتُ في الجبال ولم أعد أعرف الطريق. هل المدينة بعيدة؟

ـ لا. إنها أمامك على رمية مقلاع.

عند الغروب لاحت المدينة. وإذ دخلها لم يَرَ جنوداً ولا متاريسَ. كانت حركةُ وضوضاءُ السيارات والبشر على أشدها، وعلى الأرصفة ازدحم البشر وعربات البيع.

على وجوه الناس لمح كآبة وضيقاً مُبْهَمين، وخشي أن يهزؤوا منه إن سأل عن السبب، فاكتفى بفكرة أن الأصيل ربما كان محزناً للناس.

رغب الأخضر لفافة تبغ فطلب من أحد المارة سيجارة، غير أن الرجل نظر إليه بازدراء وحقد: ألست مسلماً؟

ـ مسلم والحمد لله.

ـ المسلم لا يفطر في رمضان!

تابع الأخضر طريقه. وهو يقطع الشارع رأى رجلاً مسناً وفتى مشتبكين في معركة. كان كل منهما يضرب الآخر بوحشية بينما الناس يتفرجون بلا مبالاة، وإذ حاول الأخضر الاقتراب لتفريقهما أخذه رجل من كتفه وصاح به: دعهما. هل تشترك معنا في رهان من يصرع الآخر؟

وسأل: ولكن لماذا يقتتلان؟

قال الذي جذبه ضاحكاً: أب وابنه غلبهما جوع رمضان.

كانت العيون قد احتدمت، ومن العيون المراقبة شعّت نيران الهياج. وسقط الأب إذا ارتطم بحافة الرصيف فانقض الابن على صدره. رفع سكينه وغرسها بعنف تحت خاصرته اليسرى، ثم ضغط بكل قوته فانبثق الدم، وبدأت حركات الأب تتخامد بينما تحلّق المتراهنون يتقاضون الرهان.

شعر الأخضر بالغم. بصعوبة تابع طريقه وسط الزحمة. كان خلُو المدينة من الأعداء الذين كانوا يزرعون الرعب والفزع في المدينة، يدهشه.

انعطف في شارع فرعي بعيداً عن الزحمة، فسمع صوت صفارة إنذار. كان الناس يهرعون والشوارع تخلو. قال الأخضر في نفسه: لابدّ أن الأعداء قادمون هذه المرة. تحسس خنجره الحجري فاطمأن لوجوده. عدا نحو مدخل إحدى

العمارات المطلة على الشارع، ولطأ هناك. كان قلبه يدق بعنف. لم ينتظر طويلاً. بعد لحظات تدفق سيل البشر فامتلأت الشوارع بهم. كانوا يدخنون وقد غادرتهم الكآبة وضيق الأصيل، وهذه المرة لم يظهر أي أثر للأعداء.

خرج من مكمنه، وراح يتفرج على واجهات المخازن الممتدة على طول الشارع. لم يكن يفهم شيئاً مما يدور حوله: عالم غريب! قرأ اللافتات ورأى الثياب الجميلة المعروضة والخضار والسيارات والنساء الجميلات وهن يُطِلْنَ الوقوف أمام الحوانيت، ولكن لم يَرَ أثراً لعدو أو ثائر. وتساءل بدهشة لا حدود لها: ولكن أين الأعداء والثوار يا أخضر؟

أمام الساحة الكبيرة وعلى جانبيها تمتد المقاهي. بين كل مقهى ومقهى، مقهى. هناك يستلقي الرجال وحيدين أو متحلّقين يدخنون ويثرثرون ويحتسون القهوة. وسط الساحة شاهد الأخضر جموعاً حول رجل اعتلى منضدة. كان الرجل يرتدي ثياباً تشبه ثياب الحواةِ والسَّحرة، وقد طوقه عدد لا يُحصى من تجار المدينة ببضائعهم المتنوعة. كان الرجل ينادي رافعاً بيديه ما يُعطى من بضائع التجار. على مقعد حجري جلس الأخضر يراقب المزاد. كان المساء يهبط على المدينة، حاملاً معه صوت أغنية حزينة سمعها الأخضر تأتيه من مكان بعيد. وعبر به رجل فقير حافٍ في عينيه ذلّ قديم. توقف ومدّ يده طالباً حسنة. تملّاه الأخضر مدهوشاً. كان الشحاذ فتى قوياً، لكن عينيه كانتا تمطران كآبة. بدأ صوت الأغنية يعلو. قال الأخضر بهمس داخلي: يا لبلادي الحزينة!

السيارات تعبر سريعة. فتيات وفتيان يقودون السيارات بهوس. فتاة صغيرة جسمها كالإسفنج ترتدي بنطالاً ضيقاً،

تدخل المقهى، تقبل فتى بسرعة خاطفة ثم تتأبطه. يمتطيان دراجة نارية ويعبران كالريح.

صوت الرجل الواقف وسط الجموع يرتفع. في يده ثوب نسائي للبحر: مايوه آخر موديل. واحد... واحد.. مايوه بـ... بـ... بمئتي دينار. من يزيد. مايوه من الدمقس المطعم بالبروكار خاص بحوريات البحر... اثنان.. اثنان.

صوت يرتفع: ثلاثمئة.

ثلاثمئة من يزيد... اثنان. مايوه ترتديه إلهة الجنس في العصر الحديث.

صوت يرتفع: خمسمئة.

أونو.. دُوّي... من يزيد؟ تري. ويقذف بثوب البحر باتجاه رجل مسن.

كان صوت الأغنية ينساب وحيداً في فضاء الساحة. يدخل أعماق الأخضر ثم ينتشر كهذا المساء فوق المدينة.

وعَبَرَ قرب الأخضر رجل يرقص ويضحك. كان يقوم بحركات هستيرية. عندما حاذاه تفرّس فيه وراح يلقي كلمات غير مترابطة: بعد حين ستسمع... ها ها... الموتى مرتاحون والغرباء كلهم يسخرون مني. خذوا يا كلاب.

كان الرجل يقذف بحفنة نقود باتجاه المزاد: مدينة قحبة.. ها ها... قوّادوها هؤلاء... لا هي أرادت ذلك ولا أنا. أقول لك الحق. كانوا أقوياء فيما مضى. أقوى من النار صدقني. من أجل هذا أشعلوا النار. انظر.. انظر بعيداً هل ترى النيران؟.. ها ها.. الأبنية والمخازن وأصوات المزاد حجبت الجبال والنيران.

سَبُوها ثم ناموا معها عُنوةً. هكذا ورثوها. كانت بحاجة إلى المال والرقص والموسيقى واللذة. الناس جميعاً بحاجة إلى ذلك عدا المجانين والمشردين والجرحى والشهداء والسجناء والمنفيين. آه لو رأيتهم يوم كانت نيرانهم موقدة. من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب كان الناس يتجهون نحو نيرانهم... ها ها... يوم كانت البنادق كانوا كالنمور... هكذا كانوا يثبون ويطعنون.

ووثب الرجل نحو شجرة، وبوحشية راح يطعن الجذع بقبضته حتى تدمّت. كان في عينيه انحرار ولمعان موحش لا يوصفان. وتابع: كانوا كصقور الجبال. هكذا كانوا يطعنون الأعداء... هيئ... هيئ. لا. لم يرتاحوا. إنهم يطعنون بعضهم بعضاً كما ترى. الألم والغضب يأكل نفسه. انظر إليهم كيف انقسموا على أنفسهم. عاد الناس غرباء بعد أن انطفأت نيران الجبل، لكن الروح تهيم مشتعلة هناك وهنا فوق المدينة ترى وتبكي. هيئ... هيئ... تبكي. الإنسان وحيد، والروح مقهورة في هذا العالم.

وتابع الرجل هذيانه: أقول لك بعد حين ماذا ترى. ملعونون حتى آخر الدهر. مدينة تحتاج حريقاً. هل لديك عود ثقاب؟ أعطني. أعطني. بعد حين سيبيعون قمصان الشهداء. ها.. ها.

هيا انهض معي لنحرق هذه المدينة القحبة.

وبدأ الرجل يخرج من صدره بعض الأوراق. كوَّمها قرب جذع الشجرة وراح يحرقها. وصاح أطفال مروا به:

حريق.. حريق. مجنون. مجنون.

وجاء شرطي. أمسك بالرجل بعد أن أطفأ النار. قيَّده ثم سحبه وراءه ككلب.

كالألم سرى صوت الأغنية. بدا الأفق دامياً في لون النيران. أحس الأخضر بحزن عميق يخرج من الماء والشجر والحجارة وفضاء المدينة. ومرت به امرأة نصف محجبة عيناها مكتحلتان فيهما بريق دعوة وجوع وحشي، وإذ غمزت الأخضر أحس بخفقان غريب ورعشة. رنا إليها. كانت تغنج بكفل لاحم فاسق، مسترقة النظر والخطو آملة أن يتبعها.

راح بعض التجار الذين لم يحضروا المزاد من أوَّله يتوافدون إلى الساحة ومعهم أمتعة وبضائع قديمة. ورفع المنادي صوته منبِّهاً للمفاجأة التي ستدهش الجميع. وخيَّم صمت تخلله الصدى الحزين للأغنية التي ارتفعت الآن.

تقدم تاجر حاملاً صندوقاً مُغطًّى بالقطيفة والمخمل، وضعه أمام المنادي وهمس في أذنه بعض الكلمات، ثم تراجع.

قال المنادي: انتبهوا... انتبهوا. وصلت المفاجأة. ورفع الصندوق المخملي فوق الرؤوس، وراح يديره في جميع الاتجاهات.

صاح: في هذا الصندوق ما هو أغلى من الذهب والماس. واحد. الله واحد لا شريك له. داخل هذا الصندوق تحفة لا أبدع ولا أعظم. واحد. واحد... سأفتح الصندوق لتروا المفاجأة.

عندما رفع الغطاء رأت الجموع قميصاً ملطخاً بالدم اليابس. أزاح القميص فظهرت بندقية وخنجر.

-ليس ما رأيتم بندقية وخنجراً عاديين... واحد.. واحد. قل هو اللّه أحد فردٌ صَمَد.. هذه بندقيةٌ وخنجرُ واحدٍ من شهدائنا

الأبرار الذين قاتلوا الأعداء قتالاً ضارياً حتى تمَّ لوطننا التحرير.

يرفع البندقية: بهذه البندقية التي لم تخطئ جندل آلاف الأعداء... واحد.. واحد.. مئتا دينار. من يزيد؟ هذه بندقية الشهيد وهذا قميصه الذي مازال ملوثاً بدمه الطاهر. رحمه الله كم كان باسلاً. تذكار احتفظ به أحد أبناء وطننا. لكنه كوطني شريف رغب في عدم احتكار التذكار لنفسه... ثلاثمئة. واحد.. واحد.

يرفع الخنجر: بهذا الخنجر طعن الفدائي الشهيد مئات الأعداء فأرداهم.. خنجر مرصع بالياقوت... أربعمئة دينار..واحد... اثنان.. بندقية وخنجر وقميص شهيد ملطخ بالدم بأربعمئة دينار... واحد.. اثنان.. ذكرى الشهداء الأبرار الذين ضحُّوا من أجلنا.. أربعمئة.. واحد.. اثنان.. من يزيد؟

كان الأخضر يرى ويسمع فيعتصره ألم بلا حدود، بينما كان صوت الأغنية يصّاعد أكثر مذبوحاً ناضحاً بالمرارة. واقترب من الساحة رجل مهيب ذو كرش يمتطي حصاناً أشهبَ جموحاً، أوقفه قرب المزاد. كان الخنجر وفي رأسه القميص الملطخ مرتفعاً في يد المنادي، وفي اليد الأخرى البندقية.

صاح المنادي: أربعمئة وخمسون.. واحد.. اثنان. ذكرى الثورة. من يزيد؟ ذكرى الدم.. واحد.. اثنان.

ورفع رجل المزاد إلى أربعمئة وسبعين ديناراً. قال الرجل ذو الحصان: خمسمئة دينار!

التفت الناس نحو الصوت، ورأوا الذي رسا المزاد عليه.

أعاد المنادي البندقية والخنجر إلى الصندوق وصاح: واحد.. اثنان.. ثلاثة. ورمى بالصندوق إلى الرجل الفارس.

بعد أن هذب الرجل حصانه ومضى بالصندوق، سمع الأخضر رجلاً بجواره يهمس: من كان ثمن حصانه نصف مليون يدفع ببندقية وخنجر عتيقين خمسمئة وهو مغمض العينين.

ـ لقد تحرر الوطن إذن!

نهض الأخضر عن مقعده. تناول عصاه الموكوءة قربه. وضع منتصفها على فخذه وبضربة قوية ضغط عليها فانكسرت، ثم نزع خنجره الحجري وغرسه بهدوء في جذع شجرة.

عبر الشوارع خطا الأخضر خطوات سريعة. وفي سمعه راح صدى الأغنية ينمو كئيباً مفعماً بالأسى. كان يحسه صادراً من الأرض والشجر والحجارة والسماء. في الطريق وهو يسير سمع صوت خطيب المسجد، يُثني على أمة محمد التي قهرت الغزاةَ والذمّيين في جميع العصور. ثم ما لبث صوته أن ارتفع: وإن ينصركُمُ الله فلا غالب لكم. وختم حديثه بالدعوة للدولة التي حققت العدل والمحبة للفقراء والمساكين والناس أجمعين.

في الطريق الجبلي بعد أن خلَّفَ الأخضرُ المدينةَ وراءه، شعر برغبة حارقة للبكاء. وإذ اقترب من قبره تذكّر المجنون والأغنية الحزينة: الروح تتيه وحيدة في هذا العالم.

بهدوء نزل في الحفرة ثم تمدد على ظهره. تأمل السماء والنجوم المضيئة. ثم أغمض عينيه كطفل متعب ونام.

الجزائر 1973

من الذي يذكر الغابة؟

مع أنه كان صباحاً رمادياً، إلا أن شيئاً يكاد يكون مضيئاً بدا تحت هذا البهوت الكامد. كان ذلك الشيء يلمع بوضوح في حركة ووجوه البشر الذين انتشروا في الساحة الكبيرة وعلى الأرصفة.

داخل هذه الكتلة المديدة، المختلجة كجبل من ثلج في محيط، كنت أتحرك. منذ المساء جهَّزت نفسي لاستقبال الرجل. هذا الذي سمعت عنه وقرأت ودُهِشت، كان سيهبط مدينتنا أخيراً.

ها أنذا في ضمير الكتلة المتموِّرة. هضاب من البشر على أدراج المقاهي وفوق المقاعد الحجرية وفي أعالي الأشجار وأعمدة الهاتف والشرفات؛ حركة وصوت داخل هذه الأمواج. أناشيد، مديدة.. مديدة.. عميقة عمق البحر. الرجل الذي سمعوا عنه وقرؤوا ودُهشوا، سيأتي.

كان يخيل إليّ وأنا أتغلغل في زحمة هذه الغابات البشرية، شاقّاً لنفسي مكاناً صغيراً، أن قسماً كبيراً قد زحف منذ الفجر من القرى والمزارع وأطراف المدينة ليحتل مكانه هنا.

البشر يبدون في أتمّ زينتهم. وعلى وجوههم فيض من

فرح، بدا كأنه قد تكثف في أحداقهم اللامعة. الحدقات التي تتجه نحو مكان محدد، ونحو رجل سيقبل من ذلك المكان. لقد كان بادياً هناك في الوجوه الفرِحة أن شيئاً عاماً يطغى، معطياً المكان والزمن إيقاعاً سيمفونياً شديد السحر. كانت الساحة والمدينة تخرجان أفراحهما المختزنة كما يُخرج الفلاحون غلال الصيف في أزمنة الشتاء.

من كل مكان جاؤوا منه، حملوا باقات من الزهر وأغصان الغار الخضراء وجرار اللبن وعناقيد التمر، فلا بد للقادم من التوقف أمام هذا الحشد ليسلّم ويحيي ويتناولَ شيئاً من طعام الفقراء بعد رحلته الشاقة، وإذ ذاك ستُنثر الزهور البرية عليه ويتوَّج بأوراق الغار التي أحضرتها الفلاحات من الغابة.

ولم يكن مستحيلاً التفكير باحتضانه ورفعه فوق الراحات عالياً، عالياً، بينما يتبع ذلك رعد من الهتاف المخبأ في صدور الفلاحين والعمال. رعد داوٍ. داوٍ. يزلزل المدينة ويصل أسماع الجبل.

هكذا بدوت في الصباح بكامل زينتي. كان علي أن أحتفي به كما يحتفي الأطفال بالعيد، لذا ارتديتُ أجمل الثياب وتمرّنت أمام المرآة على تحيته برفع يدي عالياً، كما جربت أن أهتف وأردد نشيداً حماسياً عن الوطن، لكنني توقفت: فلأحتفظ بكامل صوتي للحظة اللقاء.

وأنا على وشك مغادرة البيت فكرت: هل أنا مناسب تماماً لاستقبال الرجل؟ ورغم اكتمال زينتي واختزان صوتي شعرت وأنا أخرج أن شيئاً ينقص احتفالي به: ماذا سأقدم له وهو يتقدم لمصافحتي؟

آي! ولماذا لا يحدث ذلك؟ أليس صديقي. بلى. لقد قرأت عنه أنه صديق الجميع. كما قرأت وسمعت أنه إلى جانب عنفه وقسوته مع الأعداء، يتميز بقلب فسيح أخضر يغمر الدنيا بالحب. ثم لماذا خرج إلى الغابات مع أصدقائه ومعهم بنادقهم؟ إنه لابد يعرف ويذكر أنني واحد من ملايين الأصدقاء الذين أحبهم وأحبوه في هذا العالم. كما أنه لابد يعرف معنى أن يصافح رجلٌ عظيم أصدقاءه العاديين بعد النصر العظيم. إن ذلك يعني كما يدرك جيداً وهو يشد بحرارته وقوته المعروفة على يدي ويقول: لا جدران ولا مسافات بيننا يا صديقي!

ولأنني كنت موقناً من ذلك قطفتُ له وردة حمراء. أجمل وردة من ورود الحديقة العامة انتقيتُها وحملتُها تحية لأعظم وأجمل رجل أحبُّه.

قلت لنفسي: بعد أن ينتهيَ من مصافحتي سأزرع الوردة الحمراء في عروة ثوبه الأخضر، ثم أهدرُ بصوتي الذي خبأته يوماً كاملاً، هاتفاً باسمه واسم جميع فقراء العالم.

لم أفهم ماذا حدث. لم أستطع أن أفهم. كالبرق اخترقت سيارات أنيقة زرقاء وسوداء تتقدمها دراجات نارية مجنونة، الكتلةَ الممتدة. دويُّها المفزع طغى على الأناشيد والأصوات والأفراح. دويٌّ مزج الخوفَ بالرهبة ففجأ المدينة والساحة. امتداد سريع خاطف لموكب مفعم بالأبّهة والأناقة. استعراض مبهرُ لا مبالٍ، مرَّ فوقنا وقربنا. مددنا أعناقاً وعيوناً اعتكر فيها الفرحُ والدهشة بحثاً عن الرجل الذي انتظرناه منذ الصباح. الرجل الذي زحفنا لنقدم له الزهر والورد واللبن والتمر والفرح العميق.

أرتال السيارات. أبواقها. شرطتها. الدراجات المنذرة بصوتها المرعب خطفت أبصارنا. بدَّدت فرحنا. خلفتنا وراءها ولم نرَ شيئاً.

لم أفهم ماذا حدث. لم أستطع أن أفهم. لم أكن حزيناً بقدر ما كنت مقهوراً: أناقتي وصوتي وفرحي ذهبت سُدى!

كطفل شرس رحت أسحق بين أصابعي تويجات الوردة الحمراء وأنثرها بعصبية فوق غبار الساحة.

شيء واحد أحسست به فيما بعد: بقع حمراء فوق راحة كفي، لم أفهم إن كانت دماً أنها صباغُ ورد!

الجزائر 1973

صمتُ النار

كانت الحرب قد انتهت وآلت إلى ما آلت إليه، فبدت الهزائم والانتصارات أشبهَ بحلم عَبَر في ضمير الزمن.

أخيراً عاد الرجل المحارب من الأسر. عاد بعد نهاية الحرب بشعر أشيبَ ونُدبتين في منتصف الوجه تماماً.

وسط الصالون الضيق كانت المرأة تنتصب كقَدرٍ معاند، وعلى وجهها غبارُ ماضٍ كئيب بينما راحت تثرثر.

وفي الغرفة المجاورة كان الأطفال يلعبون الدَحَل، بينما صدى أصواتهم المهتاجة يطعن الجدران بكل وحشية البراءة.

كان صوت الطفل البكر أقوى الأصوات، ومن الشارع تناهى دويُّ الباصات والصدى المخنوق لجلبة البشر.

الوقت أصيل، وبخار أشعة الشمس امتصته الجدران واحتفظت به فشعّت الغرفة كحمّام لاهب.

وقبل عامين كانت جدران الأسر لاهبة هي الأخرى، كما كانت وحدة السجين داخل تلك الحيطان الصماء رهيبة كقطع الأصابع بأضلاف الأبواب المسنونة الحدّ.

ـ الحمد للّه على سلامتك. في غيابك انتحبوا طويلاً وهم الآن فرحون بعودتك. كان الناس في غيابك أقسى من الذين سجنوك. قل لي أَلَمْ تشتقنا؟

ثم قالت أشياء أخرى لها معنى وأشياء لا معنى لها.

في الليلة الأولى والثانية والثالثة تعانقا وابتسما واستحما ثم اضطجعا. وفي الحمّام رغبا ممارسة الجنس فوق البلاط الأبيض، وفي اليوم الرابع عاد الدوي والصدى يخرجان من الجدران. من الريح ومن كل الأشياء الحاضرة والتي مضت.

ذرّة من دائرة الهدوء تنسلخ عن جسد الزمن الضوضائي تكفي الأسير. تكفي هذا المحارب المستلقي ليغفو، بعد أن عاد وفي نسوغ أعصابه كل ضجيج السجون ورعبها. مع عودته عاد الصمت القديم؛ صمتُ الوجه الأصمّ، وصمت العينين، وصمت الحنجرة، وهذا القلب الفارغ.

ـ لماذا لا تتكلمْ؟

كان الاستجواب قد بدأ مريحاً في الليالي الأولى ثم تنامى مهيناً صاخباً في الليالي التي تلت.

ـ كل ما سمعته عنا ليس أكثر من أكاذيب. قومك يكذبون وهذا الملح اليومي يريح ضمائرهم المقهورة، الضمائر التي انهزمت والتي ستنهزم أيضاً. أتريد الحق؟ حتى الحرب كانت كذبة كبرى، لقد قالوا لكم أننا سنقذف بهم إلى الأسماك خلال ساعات وها أنت ترى من الذي قُذف به. ثم قالوا إننا فاشيون نضرب بلا شفقة ونقتل ونغتصب. بالطبع أنت تعرف أنّ للحرب قوانينها. أحياناً قد تخرق هذه القوانين عَرَضاً. هذا حدث ويحدث في كل مكان. دعنا من هذا. ما رأيك بهذه الحرب؟

بهدوء رّكّز عينيه في وجه الرجل القوي، الرجل المنتصر الذي يملك الآن الحياة والموت. كان وجه الرجل المحقق أسيّاً لئيماً، عامراً بالزهو.

- أعرف ما يجول في رأسك لكنها قوانين الحرب. ولو كنت مكاني هل كنت أكثر رحمة؟ الحرب هي الحرب.

الحرب والكذب. الخيانة والثرثرة، ثم الثأر. وحدة الإنسان في هذا العالم والوطن النازف، الحب والموت، ورغبة الإنسان أن يقول للأشياء كوني فتكون، فالسقوط، ثم هذه الجدران التي تنضح أصواتاً. أصوات المعذِّبين والمعذَّبين وهي تتصادم وتفترق، تعلو وتنخفض، تدخل الجدران ثم تستقر في الرأس. كل هذه الأثقال كانت تلِجُ الداخل وتتحول إلى جبال. إلى مرتفعات تنهض وتنهض داخل هذا القفص الصدري. داخل هذا الرأس الذي لايزيد حجمه عن حجم كرة قدم، وفي القاع تحت الأساس تسري نار من الصمت.

رويداً رويداً راح صوت المرأة ينمو في وجه هذا الممدد فوق الفراش. الأسير الذي يطلب هنيهة نوم فلا تجيء. يشفع لدائرة الهدوء أن تقذفَ له بذرَّة. دائرة الضوضاء تلتحم وتتسع رافضة الانقسام، مصرة على تطويقه والدوران فيه شبيهَ زوبعةٍ صادفَتْ سُهباً من القش يحترق، بينما الفضاء في الخارج عَكِرٌ بغروب الشمس وبهذه النهاية الفاجعة للحرب.

وتابع الصوت رتيباً ضاغطاً: أية امرأة بعد عامين من غياب بعلها تصير عاهرة. قانون وطبيعة الجسد تقول ذلك ومع هذا فقد لا تصدقني. حتى أنت قالوا أنك اعترفتَ. جاؤوك بنساء أعرف ذلك. وأعرف أيضاً أنّ لمقاومة الجسد حدوداً.

وثقب الجدار صراخُ الطفل البكر: هاي. هاي. أنا كسبت أعطني وإلّا ذبحتُك.

كانوا يُمرِّرون شفرة المطواة أمام عينيه العكرتين بينما انصبَّ عليهما مركز الضوء الساطع المبهر. لم تكن اليد التي تمسك المطواة ترتعش. كانت تمتد بوثوق. براقةً، قاطعة نحو بؤبؤ العين. فقط كانت هناك ابتسامة مزرية. ابتسامة تتشكل على مهل في باطن شفتين. ابتسامة أشبه بلغم انفلَتَ صاعقُهُ.

وعلى الحواف. حواف السكين، في المدار المخروطي المتوهج، راحت ذرات من الضوء تُبرق واثبةً أمام بصره بومض متلاحق مجنون.

كان هناك مداران. مدار المطواة ومدار المخروط اللامع، كانا ينبضان بالبؤس والتوحد والحزن والعار والصمت.

ومن الجدران المجاورة انفلتت أصوات. حملتها ذرات لا لون لها ولا حجم. نَمثْ. نمَثْ. ثم كالرعد انفجرت داخل صيوان أذنيه. وكاللمع في منتصف الوجه الأصم، في بؤبؤ العين انغرست المطواة. انغرست ثم انغرست ثم دُوِّرت، فطلع ليل ورديّ حارّ.

في الحمام داعب امرأته. دغدغ حلمتي ثدييها ومرر باطن كفه وأصابعه على اللحم الطري الشبيه بباطن أوراق الدلب الخضراء. الهدوء والدفء والأمان. الدائرة بأكملها انسلخت عن جسد الزمن الضوضائي وطوّقته. طوقته وغمرته برائحة الجنس الطاغي. وكأنفاس أم في ليالي الصقيع والوحشة حَنَتْ عليه.

- كان وجهك جميلاً.

- لماذا لا تتكلم وتحتفظ بها الوجه الجميل. ألك زوجة؟

وارتعد صوت. صوت يحمل كل شفاعة الزمن الموحش.

- لا تَخفْ. مجرد لعبة مسلية اسمها لعبة الأبواب. حركة سريعة خاطفة وتسقط الأصابع. أنت تعلم أن الأبواب هنا من حديد. صنعت من حديد لمنع الهرب. أوه. ما الفائدة. أصدقاؤك يفكرون دائماً بالهرب ناسين رصاص الأسوار. في السجن ربما كان فقدان الذاكرة أفضل. هاه.

كانت اليدُ القابضة على المطواة قد تراجعت الآن. إنها هناك تجثم بهدوء فوق الطاولة. لم تكن المطواة تلمع، لكن خطاً أرجوانياً كالشعرة راح ينساب على مهل فوق سطح النصل الصقيل، وفي فراغ الغرفة خيّم صمت أكثر إرهاقاً من كل الزمن المشبع بالضجيج.

كان مايزال مستلقياً فوق الفراش وأمامه المرآة، والمرأة هناك تتحرك ببطء في فسحة الصالون ترتب وتنظف وتنقل بعض الأشياء دون أن تكفّ ثانية عن الثرثرة. كانت تراه ويُحسّ بها، ويسمعان معاً أصوات الأطفال الوحشية القادمة من الغرف المجاورة والشرفة حيث انتقلوا الآن، وراح وقع أقدامهم فوق البلاط وعلى جدران غرفته يمتزج بضوضاء الباصات والبشر.

كان يرى نفسه في المرآة ويرى المرأة والأطفال والبشر والضوضاء والزنزانة والذين عذّبوه. وبدت الجدران أسلاك نقل توصلُ إليه ما يريد وما لا يريد ثقيلاً ضاغطاً، ضاغطاً وثقيلاً كحَمْلِ امرأة في شهرها الأخير.

وسألت الزوجة وهي تسحجُ آنية فوق سطح بلّوري:

هل فكرت بنا كثيراً هناك؟

وتابعت ثرثرة، بدأتها عن الطعام واللباس والمرض

والديون، والمستقبل. كصوت المحقق راح صوتها يتناهى إليه عبر الجدران والفراغ، وفي المرآة لمح وجهها الغباري العاتم مغموراً بغمامة اشمئزاز. كان الصوت يتواتر كنقيق ضفدعة على حافة مستنقع، حمله الفراغ شتيتاً، خاوياً من أي معنى، وفي مركز الصيوان تجمّع وفجأة انفجر بضوضاء لا حدَّ لها.

ضوضاء... ضوضاء... ضوضاء...

تحت سطح الضوء وسط الغرفة المغلقة راحت تتعرى. امرأة كاملة. جسدها في لون مزيج الثلج والنار. كانت تتعرى له وبعد أن انتهت دارت حوله. جسد برّاق يدور ويلفحه. خيوط شفافة متوهجة كوهج المطواة؛ خيوط تدور وتدور آخذة بخناقه تزيد شبوب النار أكثر فأكثر. كان الجسد يتحدّاه منتصباً كالرمح في ضمير شهوته.

ـ ألا تملك شهوة؟

واقتربت منه. حفّت به وداعبته. مسحت على وجهه وشفتيه ورقبته وفي صدره غلغلت أصابعها: إنها اللعبة. دعنا نتمّمها بهدوء. وقبلته. أنا جئت من فرنسا إلى هنا. لابد أنك سمعتَ أو قرأتَ أشياء مثيرة عن الفرنسيات. هاه. الفرنسيون يقولون: أن تحبّ أو لا تحب تلك هي المسألة. وأنت تحب يعني أن تكون. وضحكت.

ـ لا تشتهي ولا تتكلم. أيضاً لا تضحك؟ هل قالوا لكم إنّ الضحك أيضاً غير مسموح به.

بقسوة حدق فيها. امتزج الحقد بالشهوة فاندفع كموج يضرب صخورَ جزيرة، جزيرة وحيدة وسط محيط هائج ليس فيها غير اليباب.

وضغطت أسنانه كلّ الحقد والحزن والشهوة ودم الوطن النازف فيه. وهمست المرأة العارية المنتصرة: نَلْنِي. هذا أفضل من السمل!

وداخل المرآة اندلعت نار. وطوّقته المرأة العارية. التحمت به وضغطت. ناولته ثديها الصلب: ألم يكن لك أم؟ اعتبرني زوجة أو أماً لا فرق. خذ. خذ.

مع النار أحس بالمطر. كان المطر في المرآة تحت الجلد يمتزج بالنار وبالأصوات وبالمطواة. وفي قلب هذا المزيج جسد ناصع كالنصل يقف في مركز الشهوة، في مركز الغبطة والحزن.

ـ حَكُوا عنك أنّ العاهرات أغروك فاعترفْتَ. هنا قالوا ذلك وقالوا: العربي نفسُهُ دنيئة أمام المرأة والعدو يعرف ذلك.

فوق الطاولة جلست المرأة العارية المنتصرة، وأمام بصره راحت تؤرجح ساقيها. بين الحين والحين تمدّهما فيلمع تحت بصره المنكبّ فخذ من الثلج المطعم بالأرجوان: ترفض لأنك عنيد. ها. تريد أن يقولوا عنك إنك شريف. العربي شريف مع أن الموت أقرب إليه من الجنس. انظر إلى نفسك كيف تفضل أن تُسمَل على أن تنال امرأة في غرفة سرية. قل لي: أي شيء ستبرهن عليه. أنك نقيّ؟ إنّ أحداً سوف لن يصدقك عندما تعود. حتى أسرتك وأصدقاؤك سينظرون إليك بريبة وحذر. هيه. العفاف، البكارة، الشرف. هذه الخِرَقُ البالية المعلّقة في دمائكم. في وطننا هذه المفردات حُذِفَت من زمن بعيد لهذا ترانا نصل إلى أية نقطة من محيط الدائرة، بينما تدورون وتلهثون كالمجوس حول نيران هذه المِزَق الخُرافية. انظر إلى نفسك كيف تقطر حزناً وشهوة. خذ. خذ هذه السيجارة علّها تعطيك بعض التركيز.

صمت. ثقيل وضاغط. الغرفة صماء معزولة. جدرانها كامدة ترشح عذاباً وضيقاً. الغرفة، هذا العالم الذي امتزج فيه الجحيم بالجنة، وكل ذرة فيك تشتهي وتقول: لو كان المكان ليس هنا. لو أنك حرّ في مكان آخر. لو أن الحرب انتهت وآلت إلى غير ما آلت إليه. لو أن الوطن مشعشع بالنصر ورايات الفرح وهذا المنتصر هو الذي ينزف حتى الموت. لو هذه الأصوات تهمد لحظة واحدة والصدر يتنفس ريح الوطن، مطر الوطن، تراب الوطن. لو في يدك السيف وجلّادك الآن تحت السيف. لو... لو... لو... لكنك هنا. ومنذ أكثر من عام والفأر في المصيدة. وفي فمك دم الوطن وعاره، وتحت جلدك كل التاريخ المحطم، يخرج من قلب الضجيج والجدران والروائح الزنخة، وهذه الوجوه التي هيّجها النصر: هيّا. هيّا. ماذا تنتظر وكل ما فيك يتقصف. أحسُّ ارتعاش ذرات جسدك. أكاد أراها وهي ترتجف. أطلقْ هذا العذاب والضغط. جسدي بحرك وشمسك وحريتك. كن مرة واحدة غير عربي وليكن بعدها ما يكون.

وصافح اللحمُ الحريريُّ وجهَهُ. انمسح فوق جلده. دغدغه. شبّت النار، والمطر انهمر. وانفغم بروائح العشب الصاعدة من باطن الأرض ومن نسغ الجذر الدموي، واحتركت ذرات المخروط اللامع المنبثق من نصل المطواة وارتفع أنين داخلي متباطئ.

أنين بلا صدى، راح يتغلغل سارياً في ذرات الحيطان العالية، والأرض التي ترتجف وتهتزّ، وأكثر فأكثر راح الموج يعنف. واقترب الأنين، اقترب ثم تسارع، ثم انفلت عالياً صاخباً بكل همجية الحرية المطعونة، فقذف بالساق بعيداً عن وجهه

فانقلبت المرأة العارية المنتصرة، ثم تدحرجت وهوى جسدها العاري مرتطماً بالبلاط العاري.

فجأة فُتِحَت الأبواب ثم انصفَقَت، ودخلوا. دخلوا مُهتاجين كثيرانٍ اندفعت نحو الحلبة، ولمع وهج المطواة تحت الضوء الساطع.

وقالت المرأة بصوت عالٍ: لا نفع منك. لقد سلبوك رجولتك. انظر إلى نفسك كيف تستلقي كتنبل.

ومن الشرفة جاءت الضوضاء أقوى، وأقوى، وأقوى.

واختلط صدى صوت الأطفال بهدير الشارع. كان البلاط يرتجف تحت أقدام الصغار، فيرتجف الجسد المستلقي وترتعش ذراته كأنما صُدِمت بتيار، والمرأة ما تَني تثرثر عالياً عن الطعام واللباس والمرض والديون، والمستقبل الغامض. كانت تتهم وتدين وتحرك ذراعيها بإشارات غبية، والحماقة تطفح من وجهها الظلامي، الخابي الوميض.

وكان يرى النارَ والمطَر، والمطواة تتوهج وتلمع في المرآة ولم يكن هناك عشب. وهبّت روائح. روائح أشياء كريهة تحترق خارجة من أعماق الأرض، من باطن الجذر الدموي المغمور في باطن الأرض. وقالت المرأة شيئاً نابياً ولعيناً. واقتحم الطفل البكر الغرفة صارخاً بوحشية:

بابا... بابا... بابا...

ضوضاء... ضوضاء...

ثم علا صوتها معيداً ذلك الشيء النابي اللعين. وبغتةً كما يقذف نابض مضغوط كرةً من المطاط، انقذفَ الجسدُ المُستلقي.

فتح الحزانة. كانت النار هناك في عينيه المطفأتين وفي رأسه وأذنيه وفي دمه. خطف البندقية وكسرها ثم لقّمها وأعادها إلى وضعها الطبيعي وسدَّد نحو مصدر الأصوات باتجاه الصوت النابي اللعين نحو منتصف الوجه، وضغط مرة ومرة وسمع حشرجةً ثم هويَّ جسدٍ فوق البلاط الأبيض العاري.

فجأة وكما يحدث بعد إعصار، سكَنَ كلُّ شيء في العالم، وفوق سهبِ الضوضاء ران هدوء مديد. مديد.

دمشق *1969*

الاغتيـال

تحت كفّي كان الثدي. كان يفيض من بين أصابعي المنفرسة الضاغطة. ثدي من المخمل راحت أناملي تجسّهُ وهي تزحف نحو قمته. إذ شارفت القمة ثم ضغطت بإصبعين ترشحان جنساً آهتِ المرأة: أنت تقتلني. آه.

كان الطفل منكباً في حضنها يبكي. ولما ازداد الضغط مدّت عنقها باتجاه وجهي. رأيت الجنس يقطر من مسامّ شفتيها.

لابد أنها الموسيقى التي تصدح قادمة من هناك. تأتي من الغابة، أو من أعماق حيوان سيُذبَحُ فيما بعد، أم تراها موسيقى البحر؟

الوقت سحر. رجل غريب يطلع طريق الجبل. إنه في طريقه إلى الكمين، إلى موطن العشق القديم.

كالقصب في الريح كنّا نرتجف. نسمع الخطوات الوهمية القادمة من هناك مواكبةً صُداح الموسيقى. يا للفزع البهيج يقبل من أرصفة المدينة. يتولّد منا ونحن هنا في هذه الغرفة نصطدم بعُري آثم: تك. ترك... تك... ترك..

ماتت المرأة التي كانت تقيّة في الزمن الذي مضى. إن

زوجها ينشج بحرقةِ رجلٍ وحيد، في غرفة معزولة. وها هم يتوافدون ليعزُّوه وينشدوا أحزانهم على روح المرأة الصالحة.

إن عبد الرحمن بن جلون متأكد أن زوجته لم تخنه أبداً. كانت امرأة نبيلة ذات وفاء نادر لا مثيل له بين بنات العرب والفرنجة. من أجل هذا حزن عبد الرحمن، وتفطر قلبه على عائشة الورعة يوم ماتت.

ـ تصبّر يا عبد الرحمن. إن اللّه مع الصابرين وهو يبلوكم بالشدة وأوقات الضيق ليمتحِنَكم.

ـ حمداً له في السرّاء والضرّاء.

وعبد الرحمن بن جلون ثائر قديم. فقد عينيه إبان حرب التحرير. وفي القاهرة تعرف على عائشة المعلمة في مدرسة المكفوفين. أحبته وأحبها. وفيما بعد صارت زوجه وبصره.

كانت الجبال مغطاة بضباب كثيف في ذلك الفجر البارد، خفّف من وطأته حرارةُ اللهفة في أعماق رجل احترف الصيد والغابات.

هي الموسيقى تأتي من هناك. حزينة فرحة. وفيها شيء من بقايا غضب. ابن جلون يسمعها، والغريب الموغل في دروب الغابة يسمعها، والذي يدمي شفة المرأة من فوق ظهر الطفل المنكبّ يسمعها أيضاً.

في غرفة الحريم بدأ التجمع. بعد قليل تنوح المنشدات. سيعزفْنَ بنحيبٍ صامتٍ لا يلبث أن يرتفع، ثم يصخب بهدير كهدير البحر.

حدث ذلك في غروب قديم ما عاد يذكر كل تفاصيله. كان

يجلس على حافة نافذة البيت المطل على البحر. يا لعذوبتها ووحشية عينيها المبرقتين في ذلك الزمن. ذلك ما يذكره جيداً الآن.

والآن. لقد تبدل الوجه النضر. في الوجه آثار طعنات. وجه شرخه الزمن، وفي العينين مازال البرق لكنه حزين ومنكسر.

وفيما مضى لم تكن القامة بهذا السموق. آه يا للصدر الخصب. إنه يبدو كمرج معشب فسيح. ولكن من الذي يستطيع أن يتذكر جيداً!

ـ أتذكر؟

ولكن من الذي ينسى البحر؟ أكثر مما ينبغي تقدّم الوقت. وقت بين الشروق والغروب بينهما تتفتح الذاكرة.

كانت الرحلة طويلة مذ سقطت تلك الشمس وغابت خلف أفقها، مخلِّفة بعض الأسى وكثيراً من النسيان.

يا إلهي أية امرأة هذه التي تطلع الآن. هذه التي تستيقظ في وقت الضيق. في زمن نُسِي فيه الإنسانُ وارتمى على كتفِ الرياح دونما جهة.

ـ واهمٌ أنت. لماذا تحدق بي هكذا كصقر جائع؟ قلت لك إنني وفية. لست منهن. دعكَ من هذه الألعاب!

لم يكن لابن جلون عينان. كان يتعرف على عائشة باللمس والصوت والرائحة. روى لها أحداثاً مروّعة عن الحرب. عن القسوة والوحشية والألم وأفراح النصر: كنا نأكل الخنازير والأفاعي وجرذان الأرض. يا حبيبتي عائشة كان الإسلام في الروح. أتعرفين قوة الروح؟

بغبطة طفل تضحك. يغمرها فرح طاغ: خذني بين ذراعيك القويتين. تلك هي قوة الروح يا عزيزي.

- لا. لا. أنت واهمة. أيام الحرب لم أكن بهذا الحجم البغلي. كان جسدي كهيكل جرادة. الآن ترهَّلتُ.

الليل

موطن العشق القديم يتألق تحت ضباب كثّ. يخرج من الذاكرة ومن كهوف الأرض. يقع على خارطة ما، يغطيه العشب زمناً، وإذ يحين وقت الصيد يتجه الصياد نحوه بقوة الروح والشم وحنين الماضي. يزيح العشب عنه ثم يكمن فيه. إذ ذاك يطويه دفء الليل والأمان.

مذ شارف الرجل الغريب المكان داهمه خفق لذيذ. ثمة موسيقى سرية بدأت تنمو. موسيقى مضوَّعة برائحة الغابات تنتشر على مهل في مسامّ الليل كله. إنه الفرح القديم.

وللمنشدات وقت. يخرجن في زمن المآسي من منازلهن. يتجهْنَ صوبَ البيوت المفجوعة. يخرجن بقوة الشمّ والاستمرار والواجب. إنهن مجللات بسواد يحاكي سواد الليل. جماعات، جماعات، مصحوبات بدفوف وصنوج، وبفرح داخلي مغطى بظلال الفجيعة.

- لم أسمع في حياتي بومةً تنعق بمثل الحزن الذي نعقت فيه يوم موت عائشة. حطّت على شجرة مجاورة وراحت تنوح.

- هل تفكر بالدعوى... وابتلع الرجل بقية العبارة. أحس بحرج الموقف.

أجاب ابن جلون: طبيب ملعون خائن وابن عاهرة. كان صديقاً لنا. هؤلاء الأطباء الكلاب يقتلون القتيل ثم يمشون وراء نعشِهَ. تصور أنه أتى معزّياً ومعتذراً. لست أدري من أين جاءني الصبر فلم أطعنه كما طعنني.

ـ تصبَّرْ. ألم تسمع ما حدث لأيوب ويعقوب. الصبر مفتاح الفرج يا عبد الرحمن.

ـ مرتان فقدت بصري: يوم الحرب ويوم موتها. ما الذي فعلته لأُمتحن هكذا؟

ومن مكان ما تسيل دموع حارة. ابن جلون يشهق.

بالجنس تتفتح امرأة. والجنس مطر يهمي ويتدفق نحو الشعيرات الماصة، ثم ينهض في النسوغ عصارة حياة. إنها تضحك ضحكة ممزوجة بالفسق والتوق الضارع. تقول وهي تتفتح بضحكتها الزهرية: ها. عليك أن تلمّ هذه الأشراك وتمضي. من أين تعلمت هذه الألعاب؟ كما قيل عنك: صياد قديم. أنت واهِمٌ ووهمك كبير ككلماتك. أنا امرأة وفية لزوجي قلت لك.

لستَ واهماً. من زمن طويل وأنت تنتظر قدوم هذا الوحش. من عيني الليل يخرج. وحش مكتسح يتقدم، وأينما سقطت قدماه يشعل الحرائق. لقد رأيته من مسافة بعيدة. أو قرأت عنه في رحلات الصيادين عبر أدغال أفريقيا أو آسيا. وحش مخطط جميل مملوء بالذعر. عيناه تتقدان كنار في ليل. يثِبُ إذا ما أحسَّ الخطر مسافةً مديدةً ولا يخطئ فريستَهُ. طلقة واحدة تحت الإبط الأيسر أو في مؤخرة الرأس، أما الثانية فلا تنطلق أبداً.

ومنذ زمن بعيد والرجل الغريب يغشى هذا المكان. يأتيه في الهزيع الأخير، ومعه كل ألعاب الصيد. إنه يكمن الساعات الطوال

منتظراً عبورَ وحشه الجميل، غير أنّ الريح كانت تسوق له أبداً الخنازير والثعالب والضباع. كانت تقبل على الروائح وتقع في الفخاخ، وأثر ذلك كان يسمع خفقَ أقدامٍ فوق أوراق وأعشاب الغابة. كان الوحش الجميل المخطّط يبتعُد.

عائشة وحدها كانت تدرك لماذا يبكي ابن جلون. كان يقول لها عندما تسأله عن الروح: الروح! قدرتي على معرفة لون عينيك وجلدك. بقوة الروح صار باستطاعتي معرفة قوة ضغطك الدموي. صار بإمكاني أن أعرف وقتكِ، وقتَ النوم ووقتَ اليقظة. وقتَ فرحك ووقت كآبتكِ. وقتَ قوتكِ ووقتَ ضعفكِ. آه يا عائشة أنت لا تدرين كم أحبك! أتعرفين علاقة الشمس بالأشعة، والاخضرار بالغابة، والجذر بالأرض، أنت أشعتي واخضراري وأرضي. ويضيف ابن جلّون: يقولون: المرأة الجميلة مهيأة للخيانة والمرأة الدميمة مهيأة للإخلاص. لا أدري في أي كتاب أو صحيفة قرأتِ لي هذا. هل طفلنا جميل يا عائشة؟

صورة طبق الأصل عن حبنا. أليس رائعاً جبنا يا عزيزي؟

- بلى. بلى. كالخط القائم على حافة الليل والفجر. صفي لي يا حبيبتي لونَ هذا النهار ثم لونَ طفلنا.

السنة العاشرة أقبلت. أذكر كنت طفلة. وكنت أحب البحر. بيتنا كان يشرف على البحر. كنت أجلس في النافذة. في المكان الذي جلستَ فيه قبل سنوات، يوم كنت فتياً وشرساً وعيناك في مثل بريق النار تخترقان البحر وصدري. يومها كنتُ صغيرة وكنتُ أحلم بصياد يأتي ويخطفني من نافذتي تحت ضوء القمر. يمضي بي في زورقه ونعبر الأمواج والجزر وهو يغني لي ويطوقني. لابد أنك تعرف لماذا يحنّ الإنسان لطفولته. ستشرح

لي ذلك فيما بعد. أشياء كثيرة أحسّها. إنها هنا في صدري ماتزال تخفق كطائر طفل. تشبه نبعاً جبلياً أو عشباً تحت مطر. إنني أشعر بها تنمو وتتفتح. قل لي كيف تتفتح امرأة برجل؟

يدخل الرجال غرفهم، يعزّون ابن جلون وأقرباءه. وتدخل الحريمُ غرفَهنّ يعزّين الأم والقريبات. وفي غرف الرجال ترتل آيات القرآن بصوت يشبه دويّ النحل المحصور. وفي غرف الحريم تتجمع المنشدات ليبدأنَ بعد التلاوة أنينَهنّ المأساوي. الصوتَ الفاجعَ لدورة الموت والزمن.

بعد أن تنتهيَ الحرب يبدأ الزواج. يبحث مشوّهو الحرب والمتقاعدون عن سرير ووسادة. ما عادت الغابات والكهوف تتسع لهم. يخمد الألق الناري القديم ويهجع في مكان ما من النفس. وذلك الحصان الواثب في الريح وفوق القمم يتعب، فيبدأ باللهاث.

إنه الزمن. هذا الوحش الضاري الذي يطعن فرسانه بلا شفقة في مراكز حساسة، إذ ذاك يبدأ نشيد الحزن. يشعر ابن جلون بذلك في وحدته القاسية، كذلك الرجل الغريب، والمرأة التي اهتزَّ عالمُها القديم.

بحرارة تضاهي حرارة الأرض في الصيف تتحدث عن شوقها. عن لوحةٍ غريبة في رأسها: سماء بلا حدود وأرض خضراء مفتوحة واثنان يجريان حفاةً فوق العشب ويتسلقان الأشجار. يأكلان من شجر البراري ويُسعدان بالغناء. يُشعِلان ويشتعِلان ناراً لا تخبو في جميع الليالي. ويكونان أصدقاء الوحوش والأراضي العذراء.

- وإذا ما هطل المطر؟

ـ يلتحمان في الكهوف.

ـ وإذا ما فاجأهما الموت؟

ويهتز الصمت. صمت فتي، حزين، مباغت.

الزمن

كان بودّي أن أسألها: لماذا تخون امرأة زوجَها؟ لكنها فاجأتني سائلة: لماذا يشوه رجل عالم امرأة؟ يا شفيع كم هي سؤولة هذه المرأة. لا شك أنها مصابة بوباء الدهشة أمام جميع الأشياء، لكأنها وُلدِت قبل خلق العالم وتلوثه: ماذا يقول العصفور وهو يرتجف من البلل؟ ماذا تقول الموجة البحرية للشاطئ؟ لماذا هذه الشجرة أكثر اخضراراً من الأخرى؟ هل تشبه الأرضُ المرأة؟ أأنت ممتلئٌ بي كما أنا ممتلئة بك؟

أمام هذا الانهمار العجيب للأسئلة، أشعر برغبة الاندفاع نحوها. أطوقها موقفاً دفق الأسئلة. أقبلها في مكان من جسدها. في الأعلى والوسط والأسفل، فترتعش تحت ريح الضغط والقبل كغصن غضّ: قبلني أيضاً. خذني. ثم تهمس سائلة: هل سأكفيك؟ أنظر إليها وهي بين ذراعي. هذه الطفلة المدهشة الممنوحة لي في أزمنة الضيق والخوف، وكلانا يتقصّف فزعاً من الخطوات البعيدة التي تدق الأرصفة. تقول: في عينيك جوع مزمن. ألستُ حارّة وكافية؟ فيما مضى قبل أن تأتي كنتُ كجبل الجليد. قبلني على رمانة كتفي وخلف أذني. هنا مركز إثارتي.

يا إلهي أية رائحة مؤججة. إن العالم يتفتح برائحتها: أرغب طفلاً منك.. اضغط أكثر.

ـ وسيم ممتلئ بالصحة طفلنا. يتبختر في خطواته فرحاً. عيناه في لون البحر. أنت تذكر لون البحر يا عزيزي؟

ـ أجل. أجل. من ينسى البحر يا عائشة. كان الجبل الذي نرابض فيه مطلاً على البحر. آه جبل سرايدي. كم تبدو بعيدة الآن بونه الرائعة. يا لتلك الأيام المفعمة بالعظمة والحزن.

ـ ها. لقد بدأ الحزن يطفو على وجهك مرة أخرى. هل أنت الوحيد الذي حصد الريح بعد الحرب. إنهم هناك فوق الأرصفة مُمَدَّدون أمام الأفران والخمارات والمقاهي وداخل أكواخ الصفيح، لو تستطيع أن تراهم خارج المدينة، يشبهون وباءً ضاراً عزلوه حتى لا يصيبهم بالعدوى.

ـ كفى. كفى. أعرف ذلك. أعرف. إنني أشم روائحهم. أعطني وجهك ووجه طفلنا.

ويستقر الطفل ووجه عائشة على صدر ابن جلون المنتحب.

يشعر الرجل الغريب بالصقيع الليلي، فيحفر حفرة يشعل فيها ناراً. مازال هناك وقت لقدوم وحشه الذي يتربصه من أعوام. إنه يعرف أن الروائح ستجذبه عندما تهب الريح. من هنا طريقه وهو قادم من الشرق. من قمة الجبل يتقدم بخطى وَجِلة ولكنها وثّابة وقوية. مرة واحدة ستخونه خطواته ولكن على مراحل.

المرحلة الأولى وهي تقوده باتجاه الروائح.

والمرحلة الثانية وهي تدخل دائرة الكمين.

والمرحلة الثالثة وهي تُشلّ تحت وطأة الطلقة بعد اختراقها القلب.

كان ابن جلون نمطاً بدائياً متفوقاً في جبل سرايدي، كما كانت له قدرة خارقة على تنفيذ العمليات الفدائية والنجاح فيها، لكنه كان ينفذها بفردية خاصة لا تعرف الخطر. رجل وحيد يكثف في لحظة التنفيذ الروحَ الخلاقة التي تحدث عنها لعائشة.

وليلة مزقت الشظايا بصره صاحوا به أن يعود فالعدو ينصب كميناً محكم التطويق. لكنه لم يسمع الأصوات. تقدم واخترق الكمين وقاتل بشراسة وحش ثم زحف عبر الأدغال مضمخاً بالدم وبلا عينين.

أتعرف ما الذي يقوله لي؟ صارت لك رائحة خاصة يا حبيبتي. من أين هذا التفتح العذب لجسدك. أشعر بدوار مجنون وأنا أستلقي على ذراعيك. هل تضعين رائحة خاصة تحت إبطك؟

ـ خلال عشر سنوات وأنت تنامين مع رجل لا يعرف معنى رائحة إبط امرأة؟ أية امرأة مخلصة تستحق تمثالاً يرمز للعفة والشرف!

إنها تضحك بمرارة من هذه الكلمات. تقول: التمثال الذي تتحدث عنه تستحقه بقرة. أما أنا فأحلم بتمثال امرأة عارية تجتاحها عاصفة.

الرائحة

استعدت المنشدات. الحجرة تسبح في ضوء الشموع وضباب البخور المتصاعد. عما قريب يبدأ الصوت العميق. صوت ذاكرة الزمن والتاريخ.

ها قد بدأ الوقت يتقدم. ثمة ريح رخاء تهب من الشرق. لابد أنها تقود الوحش الآن.

ـ اقذفي بهذا الطفل إلى الخارج. في هذه الليلة أشعر بمقت شديد للأطفال.

ـ ألن يكون لنا طفل؟

ـ لنا!

ـ أجل لنا. سألد لك طفلاً وسيكون أجمل وأذكى طفل.

ـ الطفل سلسلة وأنا أريدك طليقة.

من وجهها تشع ضراعة أم. وَلَهُ امرأة تحب الأطفال. تقول: الأطفال كالزهور وكالبحار. أن يكون للإنسان طفل شيء مدهش. ألا يدهشك الأطفال؟

اسألها: هل قرأتِ أو رأيت وحوشَ البحر؟

ـ سمعتُ عن الحيتان.

ـ لا. ثمة وحوش أخرى لا نعرفها تقطن أعماق البحار. أنواع أكثر ضراوة من الرجال المتوحشين.

كهبوب العاصفة المفاجئ عاد الارتعاد. كذلك عادت الموسيقى تصاحب إيقاع الخطوات المتقدمة، ولا بد أنه بدأ يشم رائحة الخيانة، وفي أمسيات مضت انتشرت الرائحة من العيون ومن الصمت الزاني.

ـ أتعتقدين أنه يعرف؟

ـ أعتقد. بإمكانه أن يتصور إبليس ولا يتصورك. لقد نسيت أن أقول لك إنه ألمح إلى احتفائي بك أكثر مما ينبغي.

ـ ولو فاجأنا معاً؟

ـ أرمي القفاز في وجهه.

ـ لكنك ترتعشين خوفاً. انظري إلى يديك. لقد بُحَّ صوتك.

خرج الطفل. صار بالإمكان أن نحتفل بلحظتنا الخاطفة.

كل شيء بدأ يتحدث فينا بلغة أخرى غير الكلمات. الروائح تعبق وتتداخل. موسيقى حزينة وعذبة تخرج من المسام وتدخل في المسام. لقد بدأ الجنون الدوري المرتعد للجسد. أكثر حرية من الريح في سجن من زمن مطوق بالخطوات وحسّ الخيانة المتفوق: تك. ترك. تك. ترك.

وفي زمن مضى كان ابن جلون يمارس حريته المطلقة وهو يضرب في غابات الجبل. كان يعتقد أنه سيد الغابة وملكُها. يعرف المداخل والمخارج، الحدود والكهوف، الوحوش والحشرات، ولون الشجر والصخر. ويعرف فصولها الأربعة. كانت الغابة سيدة مطواعة تنام تحت عينيه. فيغفو هانئاً مطمئناً على صدرها يشمّ روائح أوراقها وعشبها وترابها. تطعمه وتسقيه وتفتح له ذراعيها لينام متى شاء في النهارات والأماسي.

لقد غنت الغابة لابن جلون طوال سنوات الحرب أجمل الأغاني وأعذبها، ورقصت له أبدع الرقصات، وما ظنّ يوماً أنها ستخونه. ويوم طُوِّق بالكمين الخائن شعر بأنه فقد شيئاً عزيزاً عليه. لقد أعطت الغابة نفسها لأعدائه ليفتكوا به أخيراً.

وبدل الدمع بكى ابن جلون دماً حاراً. سقط على وجهه فوق عشب الغابة وسقاها من دمه: حتى الغابة تخون! وما كان باستطاعته فهم حالة الموت. كانت الروح القديمة تدوي في أعماقه: لم تمت عائشة ولا الغابة استسلمت.

الروح لا تموت وابن جلون مأخوذ بوعده. الوعد القديم. لقد

تحول في نفسه صوتاً داوياً في عمق البحر وانتشار الغابات التي تغطي جبال سرايدي العاصية. سكن الوعد والصوت دمه. قد تخون الغابة لكن الصحراء كانت وفية أبداً. كذلك عائشة التي لم تمت.

- اسمعي إننا ننتظر. لابدّ أنهم سيعرفون يوماً معنى الخروج من أكواخ الصفيح وبوابات الأفران والخمارات. سيأتي زمن يخرجون فيه من غفلتهم، ويومها سيخترقون الأرض خارجين من نطاق الصحراء وهم يتّجهون صوب مدنهم ومكاتبهم الأنيقة ومتاجرهم. يوم الرعد يا عائشة سيقبل، وأرواح الملايين الذين سقطوا هناك تدوي في الصخور وجذوع الشجر. اسمعي جيداً صوت الريح. إنها تقول شيئاً آخر، آه لو تدرين ماذا تقول الريح!

يحس ابن جلون بالإرهاق بعد هذا الحماس فيهدأ قليلاً. يطلب فنجان قهوة وسيجارة. مع القهوة والتبغ تتمدد غبطة مشوبة بفيض حزين. يداعب وجه عائشة فينزاح غشاء الحزن: الحق أقول لك يا عائشة: أشعر وأنا أمسحُ وجهك كأنني أمتطي حصاناً يخبّ فوق كثبان رمل ناعم. آه. كم هو ناعم وجهك يا حبيبتي. كم هو وفيّ!

- أتعتقد أننا لسنا في حلم؟

- لماذا يكون عليك أن تفعلي هذا الشر؟

- ما هو الخير وما هو الشر؟

حالة غريبة. نوع من الكابوس المريح والمقلق. يأتي على حافة النوم واليقظة. يعبرُ وعيُ الإنسان مضيقاً. يغيب هناك فتتوالد شراراتٌ جديدة من أرض لم نكن نعرفها، لكننا نتنبأ بها

ونحسها هناك في أماكن بعيدة مضيئة ومظلمة. وها نحن نُحملُ فوق مسارات شفافة. ألوان غريبة وروائحُ ذات مذاقٍ سارّ وعذب. الزمن يسقط. الزمن القديم يتقشر كجلد أفعى.

لا. ليس هذا بالزمن المعروف في التقاويم. دورة لولبية داخل بقاع مجهولة. تعرف ولست تعرف. ترى ولا ترى. إنني مخطوفة بأضواء تخترقني. تفتح لي دروباً لم أعهدها. كمنوَّمة أتقدم داخل هودج عرسي الجديد. قفوا قليلاً وسط هذه المروج الخضر. دعوني أستنشق عبير طفولتي التي مضت هنا. دعوني أمرغ وجهي فوق هذا العشب المخملي. ها أنذا أعود إلى بيتي القديم. سأقف عارية قرب بحرنا الأخضر. هذا الذي قرأت عنه ورأيته في زمن قديم. إنها عودة الوداع الأخيرة. وها هو ذا عريسي يخرج من البحر. عارياً يأخذني ويمضي. يا إله العذوبة والمسرات ما هذه الألوان وما اسم هذا الوطن؟ إيه. الريح. إنني محمولة فوق تابوت أخضر. العشب يطلع من جسدي وأنا أفيض، مملوءة بهذا السحر الدفّاق. لابد أن أمطاراً غزيرة تنهمر فوق جسدي المرتعش. ها أنذا أهوي في لج البحر. قلبي ينفطر وأنا أنزلق للقاء حبيبي.

النشيد

هوذا نشيد سرايدي يبدأ. نشيد الزمن البربري. يخرج من الغرفة الموحشة ومن آفاق الصحراء. أنين حنون ترتله الباكيات المنشدات في عرس ابن جلون الآخر. النشيد الذي كتبنهُ بالدم وهن يسقطن فوق الأرض في ذلك اليوم الرهيب.

كان الرصاص ينهمر مطراً من فوهات بنادق الجند. يحصد

النساء والأطفال ويغرق شوارع المدينة وأرصفتها بالدم، ويومها لم يكن الدم الآخر قد تخثر في شوارع سطيف وسيدي يوسف وميسلون والسويس. كانت النسوة يندبن وهن يزحفن على بطونهن التي مزقها الرصاص. يحاولن أن يكتبْنَ بالدم على الجدران كلماتٍ لم تكن تكتمل، ذلك لأن الرصاص السريع الملعون كان يخترق الفقراء بقسوة وألم.

- أتسمعين؟

- ماذا؟

- أصوات.

- من أين؟

- من كل مكان.

- لابد أنك واهم يا حبيبي. هذه ضربات الفزع في قلبينا.

- أبداً. أصوات أخرى. وقع خطوات. تاك. ترك. تاك. ترك.

أطفأ الغريب النار في الحفرة. الريح تهب من الشرق قوية وباردة. عليه أن يتأهب. لحظة الفصل اقتربت. لابد أن يأتي مع الريح هذه المرة وفي الوقت الملائم.

كان الضباب ينقشع مولّياً فوق أعالي الأشجار. وكان صوت حفيف الورق يُسمَعُ في هذا الحفل التراجيدي. بهدوء لقَّم البندقية ساحباً طلقة باتجاه حجرة النار. كانت البندقية باردة لكنها في وضعها المتأهب.

انتشري أيتها الروائح أكثر فأكثر. ولتهبّ الريح حاملة رائحة اللحم باتجاه الوحش الجميل. آه. يا وحشي الحبيب. هيا تقدم. الاحتفال المجيد ينتظرك.

ـ ليكن عرياً كاملاً. أريدك الليلة لي وليكنِ الموت.

ـ خائف أنت مثلي؟

ـ أكثر خوفاً من الخوف نفسه. دعينا نحتفل بهذا الخوف علّنا نقهره.

ـ أين؟

ـ هنا فوق هذا البلاط العاري.

ـ وسيرى كل منا جسد الآخر كما وُلِدَ؟

ـ لا جسد في العالم يضاهي الجسد البشري الجميل غير جسد الفهد المخطط.

ـ هل رأيت فهداً في غابة؟

ـ لا. إنما شاهدته يُصاد في شريط سينمائي. حاصروه وأرغموه على اللجوء إلى مغارة وهناك اغتالوه.

ـ لماذا يُصاد مادام بهذا الجمال المدهش؟

عبثاً تحاول عائشة إقناع ابن جلون. إنها تقول بحسرة: لا فائدة من كل الأحلام. لقد انتهى كل شيء. قُتل من قُتل واغتيل من اغتيل. جنود قلوبهم فوّهات بنادقهم. ينفذون أوامر عمياء يزرعون الشوارع والأزقة ويحصدون البشر بلا استثناء. الرعب والاستسلام في كل مكان. لا فائدة يا عزيزي لا فائدة. هذا زمن الدم. صار بين البشر دم والدم يصيح، ما عاد بالإمكان أن يهدأ. لقد شرب الإنسان من دم الإنسان ومن يشرب الدم يتحوّل وحشاً. الذين تتحدث عن خروجهم لو رأيتهم لتغيّرت. صاروا كالدود الممدد. هكذا تحولوا بعد أن جُمِعَت البنادق وغادروا مواقعهم.

لقد تثلموا يا عزيزي ووطئهم الزمن القاسي. ما عاد بالإمكان أن ينهضوا.

ـ آه. كم أنت واهمة يا حبيبتي. أنت لا تعرفين ذلك الشيء المباغت. الشيء الذي يولد فجأة كمطر بونه ورعودها وأعاصيرها. ألا تذكرين الأيام الأولى؟

وتقول عائشة بصوت فيه كل مرارة الزمن: ولكن ضد من الآن؟ فيما مضى كان الغرباء هنا. أما الآن... آه. دعنا من هذا. ألست جائعاً؟

هذه أصوات أخرى لا صلة لها بالأقدام التي تدق الأرصفة، أو التي تتقدم عبر الأدغال باتجاه مواطن عشقها. إن صوت المنشدات الذي بدأ الآن يذكّر بتراتيل قديمة وحزينة، قيلت وتُقال منذ عصور لا تُعرف بدايتها ولا أحدَ يعرف نهايتها. إنهنَ يَنُحْنَ فتتحرك رؤوسهن وأجسادهن المتشحة بالسواد، داخل غرفة تفيض بروائح البخور والعنبر والمسك.

ثمة امرأة من جوقة المنشدات ترفع صوتها الأكثر حزناً عمقاً وهي ترمي بالبخور إلى النار:

«عميقاً... عميقاً ليكن حزننا،

العروس ماتت ولم يكتمل حبها».

بطيئاً وعميقاً كموجة تولد من قاع بحر يتمدد الصوت ويرتقي، فيشيع جو من الأسى الدفين والرهبة. ابن جلون في الغرفة مع الرجال يشعر بالأرض تئن تحت قدميه. صوت النحيب يخطف روحه: لقد ماتت عائشة إذن!

«عميقاً... عميقاً ليكن حزننا الليلة،

العروس ماتت ولم تكتمل زينتها».

أخيراً هي ذي الريح تحمله. حذراً يخطو. صوت خفي يناديه. صوت أقوى من ثقته وجرأته. إنه يتقدم في فجر أشهب يشبه لون جلده.

وفيما مضى عرف أنهم هناك فتقدم نحوهم واخترق الحصار. كان يعرف موقع الكمين ويعرف من فيه ويعرف معنى أن يقتحم دونما وجل. لم يكن يعنيه غير شيء واحد: أن يعلِّم الجبناء كيف يقابلون لحظة التحدي. كان يحس وهو يتقدم بتلك القوة الخارقة للرعد الوحشي المضيء وهو ينيره من داخل.

- جسدك لا يختلف عن أرض بونه أبدية الاخضرار.

- لماذا لا تكفي امرأة رجلاً؟

- الرجل الحقيقي يضجر وقلبه يتسع لأكثر من امرأة.

إنها تنوح بينما تجتاحها ريح الخوف من أخمصها حتى مِفرقها. لأول مرة تخون. إنها تقول: عندما تنزلق القدم في منحدر لا تتوقف حتى الهاوية. هل تعتقد أنني بغيّ؟

في عينيها وعلى وجهها يتلألأ سلام وغبطة الجنس. غير أن هذا الخوف القادم من مسقط الطفولة يشرخ غبطتها.

وتقول أيضاً: من أين جئت؟ قبلك كنتُ مطمئنة. دخلتَ حياتي كإعصار أو وباء. قل لي ما الذي فعلته بي. هل ستتركني يوماً؟

ها هي تركع. تبدو في شفافية الأصيل كأميرة. مضيئة، ضارعة، في عينيها يترقرق دمع. يسيل الدمع: قبلني أيضاً. لو تقتلني وتحملني معك إلى الغابات. إنني أسمع صوت خطواته. ألا تعتقد أنه نصب لنا كميناً؟ يا إلهي متى سأكون لك بكامل نفسي وجسدي. ملعون هذا الخوف. آه! الخوف يطعن رغبتنا. اضغط أكثر وبسرعة.

ـ ولكن هذا أليس شراً؟

ـ شر أم خير. لقد حدث وكفى.

ـ لو عرف أنك خنتِهِ؟

ـ يقتلني أو ينتحر.

ـ أنا أعتقد غير هذا.

ـ ماذا؟

ـ سيشعر بحزن عميق. جرح آخر يضاف إلى جراحه الأخرى.

كانت الرؤية قد بدأت تتوضح. ظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود. إنه يسدد نحو أكثر من اتجاه يتوقع قدومه منه.

يتصوره مزهواً بمشيته التي تشبه مشية الأمراء. الخط البصري للتسديد يمتد من الحدقة إلى الشعيرة إلى الخاصرة اليسرى أو مؤخرة الجبهة. ما هو مهم أن يتركه يرتاح قليلاً بعد تناول الطعم، وفي لحظة الاستراحة والخدر يطلق طلقته الواحدة.

ها هو ذا قد أقبل. عرف ذلك من رائحته البريّة ومن إيقاع خطواته المقتربة فوق العشب. وارتفع أكثر النشيد الجريح. نشيد النساء اللواتي كتبْنَ بدمائهن اسم الوطن فوق الأرض والجدران.

النادبات يُصعِّدن مرثية الألم العميق. يتمايلْنَ كقصبٍ في مهبّ ريح، وهن يستعدنَ الحالة الأولى لزمن مضى. الأرض تهتز والجدران. لقد بدأ الدوار السرّي المحموم لنفوس لم يبق لها غير الأسى في هذه الهدأة الليلية.

ابن جلون صامت كالبحر.

«عميقاً... عميقاً لينشد الحزن،

ليكن الحزن وسادة العروس في ضجعتها الأخيرة».

لا يستطيع ابن جلون أن يفهم هذا الموت. هذه الحالة الغريبة التي أصابت الناس في كل مكان. فتحوّلوا إلى كورس ينشد المراثي، لكأن العالم كله قد مات بموت عائشة.

إنه يتحدث بلهجته الخائبة عن أمور مضت، وعن أمور ستأتي. وحيداً ولا من يبالي به وكأنه آخر سلالة موشكة على الانقراض. يوغل وحيداً في عالم قاتم. عالم لا يسبب غير المرارة. فهو يقول لعائشة ورأسها فوق صدره العاري في فراش نومها: من يصدق يا عائشة. أمصدِّقة أنت؟

ـ أصدق ماذا؟

وبنبرة حزن يتابع: هذا الذي حدث. الدم هو الدم. الذي اختلف هو الرصاص. إن القتلة اليوم لا يأتون هذه المرة من خارج الحدود. لماذا يحدث هذا. لماذا؟

يغمر الحزن الزوجة الوفية، فتمتدُّ أصابعها تداعب شعرَ صدر ابن جلون الذي مازال فتياً. تصعد الأصابع بحنو نحو الرقبة والوجه، وإذ تقترب من العينين تتوقف: أما آن لك أن تنسى. شد ما يبدو وجهك متعباً وكئيباً وأنت تتحدث عن هذه الأمور يا عزيزي!

ـ أنسى! حتى أنت يا عائشة! كيف يُنسى الجبلُ والبحرُ؟ كيف يُنسى الدم والصراخ؟ الرجل الذي قضَمَتْ ساقيه كلابُ الطغاة المتوحشين والمرمي على بوابة الجامع، ينوح بكل الذل والعار:

حَسَنة يا مؤمنين. حسنة للعاجز. حسنة للثائر المقعد. ويأتيه الجواب: ربي ينوب. اللّه يفتح. ثم الآخر الذي قطعوا أعضاءه التناسلية والملقى على درج القصر العدلي. الذين اغتصبت نساؤهم وهم في السجون وأقبية التعذيب. نساء المنفيين والشهداء اللواتي تحولْنَ إلى مومسات. الأطفال الجياع الحفاة المشردون فوق أرصفة الشوارع والمساجد. آلاف الفلاحين والعمال المكوَّمون كالحيوانات في زرائب الصفيح خارج المدن. هؤلاء من يستطيع أن ينساهم يا عائشة. قولي من يستطيع؟

الحزن

كانت تعطيه الآن صدرها الفسيح العاري. قالت مشيرة إلى ثدييها المتدليين: انظر ما فعله الزمن. فيما مضى كانا صلبين كحجرين من مرمر. هل ستأخذني إلى البحر كثيراً. البحر يعيد النضارة للإنسان، ويعيده طفلاً. وكرائحة الغابات عبقت رائحة إبطها. واجتاحه دوار فلثم كتفها وشحمة الأذن. وخفيفاً ضغط بأسنانه رمّانة الكتف، ثم انحدر وجهه المتوهج فتناول بين شفتيه حلمة الثدي وراح يرضعه بشبق لذيذ على مهل. وانزلقت فوق البلاط وكان هناك جلد من الصوف الأبيض وهبطا فوق الأبيض وكانا ملتحمين وما كان باستطاعة أي منهما أن ينفصل عن الآخر. وسألها هامساً: بماذا تشعرين؟ وقالت: الأرض تدور. خذني. ادخل بكليتك فيَّ. وكانت ترتعش بإيقاع خاص وهي ممددة على ظهرها الأبيض فوق الجلد الصوفي الأبيض وكان الغروب ينسحب خلف ستارة النافذة البيضاء وكانت الموسيقى شجية خافتة والجسد ناصعاً وطرياً، وبدأ الخوف وإيقاع

الخطوات القادمة ينحلّ في طقس هذا الشيء البهيج الذي يسحب الروح ويرفع نبضات القلب دافعاً الدم موجة إثر أخرى نحو كل الخلايا. وعَبَرَ الأرض نشيجٌ طويل حارّ اندغم بصوت الموسيقى الخفية، وأحسّ ابن جلون برعدة تسري في مفاصله وهو يسمع النشيد المأساوي في الغرفة المجاورة تصدح به المنشدات بصوت جارح. وجاءته موجة أخرى حملها البحر وريح الجبل.

كان من الصعب أن تصدق أن تلك التي عرفتها في أزمان الضيق، التي حمتك وغطّتك في ليالي البرد، التي آوتك عندما كنتَ بلا مأوى والتي أطعمتكَ في نهارات الجوع، قد ماتت.

لقد حدثتها عنهم كيف سيخرجون من نطاق الصحارى والمدن والأرياف الجائعة فيجتاحون البلاد بلا شفقة. يثأرون للجوع والخيانة والاضطهاد. وقلت لها بأن دماً كثيراً سيُسفَح، وأنَّ النساء سيزغردْنَ بدل أناشيد الحزن زغاريدَ الفرح والنصر. سيختفي الجوع والخيانات والكمائن، وستُهدمُ أكواخ الصفيح، وسيكون بمقدور الثوار والفقراء القدامى أن يأكلوا الخبز الحار والحليب واللحم والفواكه. تلك هي القوة الروحية يا حبيبتي. روح الشعب يا عائشة.

غير أن عائشة التي كانت وفيَّة فيما مضى كانت تقول: آه. لابد أنك مريض يا حبيبي. وتتلمس صدغ ابن جلون ونبضه: حرارتك مرتفعة وتحتاج طبيباً.

ـ ولكن ليس هذا هو ما نتحدث عنه يا حبيبتي. أنا أتحدث عن الزمن القادم وأنت تتحدثين عن الحمى.

ـ تتعب نفسك كثيراً بهذه الأفكار الغريبة. من أين تأتيك هذه الأحلام التي ترفع الحرارة. لقد انتهى كل شيء. ثم ألم نتزوج

لنستريح؟ لو رأيت صحابك القدامى. لقد تزوجوا هم أيضاً واستراحوا. بعضهم تزوج امرأة وآخر تزوج مقهى أو ذكرى أو خمارة أو وظيفة أو بنكاً أو سيارة. بهذه الطريقة نسوا الحزن واستراحوا. إلى متى ستظل تحمل هموم العالم على كتفيك؟ ألم تتعب؟

وبلا رحمة مزقت المشارط الباردة رحم عائشة. اجتازت خلايا اللحم حتى مستقر الروح فاختطفتها. صرخة واحدة هي صرخة خطف الروح كل ما صدر عن التي هدأت ودخلت غيابها الأبدي.

فوق محفَّة بيضاء مجلّلة حملوها وجاؤوا بها لابن جلون. وسأل: ما هذا الذي تقدمونه لي؟ وقالوا: خذ عروسك القديمة.

وتحسس ابن جلون وجه عروسه. كان بارداً كالثلج. وصاح بصوت كالرعد: ليس هذا وجه عروسي. وجه عروسي حارّ كنيران الجبال. ليست هذه عروسي. عروسي حيّة لا تموت.

وفي تلك اللحظة أُطلقِت طلقة واحدة في مؤخرة الرأس، وكالرمح وثب الوحش الجميل نحو الأعلى ثم سقط. وصرخ ابن جلون الأعمى: أيها الكلاب. الغابة. الغابة. أين الغابة ما عدت أرى.

وفي أسفل الشفة السفلى كانت هناك نقطة دم، راحت تمصّها وهي ترتعش وتتقصف في هبوب ريح الجنس، وتنامى صوت المنشدات حزيناً، فاجعاً وعميقاً... جاء من الممرات والجدران والفضاء والغابات والحقول والسهوب والصحارى والأغوار والشوارع وأكواخ الصفيح ومدافن الشهداء والقتلى والزنزانات وأقبية التعذيب والمنافي:

«عميقاً... عميقاً لننشد الحزن،
طويلاً كان نوم العروس هذه المرة
آه. آه. متى تستيقظ هذه النائمة الجميلة».

الجزائر، عنابة 1973

الفيـضان

1

بالأمس مات عبد الله بن أنس. هوى دون أن ينبس بكلمة، تماماً كما تهوي ذرّة غبار فوق أديم الأرض. لم يكن الحادث مفاجئاً ولا محزناً. كان هناك موشحاً بالدم والهدوء. وفي حياته لم يجد عبد الله الوقت الكافي للحزن. لقد انتهى أمر تافه كما يقولون، لكن الحكاية بكل ما فيها من مرارة لم تُنس.

وعبد الله بن أنس الذي مات الآن وفي جميع الأزمنة الماضية، كان رجلاً من عامة الناس. ولد فقيراً وعاش ومات فوق الأرض دون أن يُعرف له قبر.

كان يحب الموسيقى والمطر والحرية ويهوى المشي والصمت، لكنه كان يعرف الظاهر والباطن، وفي هذه المعرفة كان يكمن سرُّ حياته وموته.

في صباح يوم قائظ طعن عبد الله أباه بفأس حادة في صدغه فقتله، ثم فرَّ من بيته ولم يَعُدْ.

وذات صيف فكر بالزواج فتزوج، لكن المرأة التي عرفت

فيه قاتلاً يحب الموسيقى والتسكع خانته يوماً فطلّقها في الشتاء وهام على وجهه تحت المطر والريح.

قال له أبوه: تقتلني يوماً لأنك تشك أنك لست من صُلبي ومن ثم تقتل الناس وتموت وحيداً.

ويومها كان طفلاً، فلم يصدق نبوءة الأب الخرافية. لم يكن عبد الله بن أنس يكره أحداً، وكانت فكرته عن الحياة بأنها مفعمة بالغبطة، وأن الإنسان يولد ليفرح.

الآن قَتَله ومضى. وكان ذلك بداية الصدمة.

وتحت المطر كان يسمع الموسيقى. موسيقى قادمة من طرف بعيد منسي. من وطن الاهتزازات الأولى لعالم ما قبل الخيانة والقتل.

كانت نبضات الموسيقى تفتح أبواب ذلك الوطن الأخضر. لقد حرره القتل والطلاق، وها هو يخلع الرداء القديم، ويتقدم فوق الدروب عارياً وحيداً في ليل بلا نجم.

وقبل أن يطعنه قال الأب: بين الظاهر والباطن صراط كالشعرة، ولا بد أن تكون حذِراً وأنت تعبر. وإذ سأله ما معنى الحذر قال له: البحر الذي تراه بحران. بحر تسبح فيه وبحر تُصادُ فيه. كُنْ حذِراً من وجه البحر الآخر.

بين المطر والموسيقى والسير من مدينة إلى أخرى، كانت الدنيا تُضاء في باطن عبد الله. أكوان غريبة ملونة وجديدة كالغابات تمتد وتنفتح، كأنما الآن يولد ويبدأ النطق.

ها هو ذا يبدأ خطواته الأولى فوق دروب وعرة، مغيِّراً خطوط السير باتجاه ممنوع.

ـ قف. من أنت؟

ـ أنا أحمد الهلال العوض الجنّابي، ولدتُ عارياً وسقطتُ في صحن من النحاس بين الدم والبلغم وبقايا شهوة أبي. وأريد أن أستمر عارياً حتى أموت ولكن بلا دم ولا بلغم ولا شهوة منذ هذا اليوم.

ـ لا، أنت عبد الله بن أنس!

دجّنوا طفولته وغيروا اسمه الأصلي وألبسوه ثياباً ثم زوجوه وتُلوا على مسمعه آيات من القرآن، وفي المدرسة علّموه كيف يطيع أولي الأمر.

وفي الأزمنة الداجنة، أزمنة الظاهر عاش عبد الله بن أنس كما تعيش كل هذه المخلوقات. نسي طفولته واسمه الأول واعتاد ارتداء الثياب وارتضى أن يتزوج. صلى وصام وسجد وعمل موظفاً طيباً وكان له أصدقاء وانخرط في تنظيمات سرية.

لقد كان داجناً كما ينبغي.

الآن سقط الحجاب إلى الأبد بين الظاهر والباطن، بين عبد الله بن أنس وأحمد العوض الجنّابي.

لقد بدأت الحرب.

2

هو الآن في طريقه إلى القبيلة، ناسياً المدن ومؤسسات العمل وإشارات المرور والخوف والحب وكل علامات الزمن القديم، ثم هذا الغريب الذي صار عبد الله بن أنس.

في الطريق يلقاه صديق قديم. يوقفه. يسأله عن حياته ثم يسرد له بعض الذكريات القديمة: معا رعينا الغنم في الطفولة ثم دخلنا المدرسة. ومعاً قابلنا الشرطة بالحجارة وخشب المدافئ. لماذا تتشرد هكذا كالمتسولين في بلادك الجميلة؟

ويستمر الصديق القديم في حديثه عن أزمنة الود القديم. الأزمنة التي سمَّاها أزمنة الحرارة والأمل. كان يتحدث وأحمد لا يسمعه كما لم يبدُ عليه أنه قد عرفه. وسأله الصديق القديم: هل عرفتني جيداً يا عبد الله؟

ونظر إليه باستغراب: أنت مخطئ يا سيدي. أنا اسمي أحمد الهلال العوض الجنّابي. أحب المطر والموسيقى والتسكع والحرب. هل أنت من أبناء الحرب؟

- الحرب!

حاول أن يقترب منه. أمسك بكتفه وقال بدهشة: ولكن ما الذي حدث لك؟ لكنه أفلت منه: دعني أنا لا أعرفك. أنت من أبناء الحرب. وأنا أحمد العوض وأنت لا تعرفني. ولدتُ سفاحاً وقتلتُ أبي وسأموت وحيداً منفياً في أرض عراء، وهذه ليست بلادي.

غادره ومضى.

قبل أن يصل القبيلة كان عليه إنهاء بعض المهام المتعلقة بالماضي.

لقد قتله وكان هذا عملاً مهماً، وبقتله كسر حلقة من حلقات الخوف والتدجين، ثم هجر زوجته فكسر حلقة أخرى. وها هو يقطع صلاته مع الأصدقاء القدامى. لكن السلسلة ما تزال طويلة، وإذا لم تكسر كل الحلقات، فلن يكون بمقدوره اجتياز الصحراء والوصول إلى المضارب.

على الموسيقى والهجرات والمطر أن تستمر. وحدها حجاب الماضي، ووحدها القادرة على فتح الأبواب الجديدة، الأبواب التي أُرتجتْ منذ الطفولة. مدارات بينها حواجز، كانت فيما مضى مدلاة من سماوات بعيدة، سترت الطفولة والحب

والحرية والموت. وعلى هذه الألواح كتب متى تولد ومتى تدخل المدرسة وكيف تحب أباك وأمك وأخوتك وزوجتك ومتى تنام ثم متى تموت.

وولد أحمد العوضِ الجنّابي ثم سُمِّي عبد الله بن أنس ثم كان له أب ثم تزوج ثم أُخذ إلى المسجد ثم وظَّفوه. ثم هُزِمَ في الحرب.

- بين الظاهر والباطن شعرة كالصراط، والبحر بحران. وفي سنوات الصمت والتلاؤم مع العالم قال الأب أكثر من ذلك.

قال: للقرآن تفسيران وللمرأة وجهان والإنسان مرة نبي ومرة مُخبِرْ. وقد يلتبس عليك الأمر يوماً وأنت تعبر الصراط لكنك في المطهر ستكتشف نفسك. ولما سأل عن الوجه السري للأشياء قال له: بعد أن تطعنني تكتشف السرَّ في دمي المُراق.

ولما قتله خرج من البيت والوظيفة والمسجد والمدرسة ومن زوجته وأصدقائه وطاعة أولي الأمر، وبدأت الألواح تتساقط كنيازك نحو قاع أرض مهجورة، وانبثقت موسيقى مع إيقاعات مطر وحشي، راحت تتوغل داخل غابات بدائية جديدة، وسمع صوت القبيلة تنادي من مروج الدم، وطَلَعت زهورٌ وروائح وألوان لا عهد له بها، ثم ما لبث العالم أن توهَّج بأطياف وبحار وشجر، كانت فيما مضى نائية منسيّة، وأحس أحمد الهلال العوض الجنّابي أنه يسقط الآن من الرحم فوق مرج من عشب، مغسولاً بالمطر والضوء والموسيقى.

3

من مكان إلى مكان عابراً أرض الوطن. عارياً تحت الشمس والأمطار والرياح. خارجاً من الظاهر إلى الباطن على أدراج

الموسيقى والطفولة باتجاه صحراء القبيلة. والطريق طويلة وشاقة. وأن تقطع حبل السرة بينك وبين الماضي، أن تنفذَ من خلية الزمن الحاضر إلى أبراج المستقبل، مدركاً ما كان، مطلاً على ما سيكون، ليس المعجزة. الذي يشبه المعجزة أن تستمر في هذا التقدم على خط الصراط دون أن تسقط.

كل شيء يبدو مثقلاً بالنذالة في هذه اللحظة الراهنة. العناصر تلوثت. الماء والهواء والنار والعشب والحليب. درب طويل متعرج. زرع على أطرافه وفي وسطه اللصوص والخونة والأميون والحمقى والمخبرون والقتلة والقوّادون. مضيق من الموت والآلام. وأنت على خط الصراط تترنح، لكنك تسير. عيناك مفتوحتان وقلبك ينبض والطريق طويلة وشاقة ومعك سر الحياة والموت. السرّ الذي اكتشفته في الدم الملوث. لكنك ستصل إلى أقاصي الصحراء يوماً، وستسألك القبيلة عنهم وأنت تعرف الظاهر والباطن. تعرف الأب الكاذب وبنيه، وتعرف أصدقاءك وامرأتك وجميع من خانوك. ولابد لك يوماً أن تقود القبيلة كبدوي يتقن معرفة الأثر. ستعرف الأثر من خطواتهم الهاربة وخطوات الجمال التي حمّلوها الذهب والعشيقات والوثائق السرية.

سيكون هناك فزع كبير وشفاعة. دويّ وصرخات. الآباء يحتمون بالأبناء. النساء يمزقن أثواب الحرير والمخمل ويقطعن الجدائل. الذين سفكوا الدماء البريئة وشربوها أنخاباً في قصورهم وثكناتهم، سيقابلون عدالة موتهم وهم يصرخون بالتوبة والغفران، لكن المحاكمة ستنتهي كلمح البصر دونما شفقة، وبأقل ما يمكن من الضجيج. ثم تنثني القبيلة عابرة صحراء المنفى لتقابل موتاً آخر. تقابله بروح الأسلاف التي لم تقهر يوماً.

عندما استيقظ كان المساء يهبط على المدينة، وكان قد سار طويلاً. وتذكر بأنه أراد أن يقول الأشياء على ناصية الشارع بين الناس.

ـ لماذا أنت هنا؟ الأرصفة للمارة. هيّا معي.

ويقتاده رجل غريب ملامحُهُ قاسية. يدخِلُه مكاناً رطباً، موحشاً، ثم يقذف به نحو غرفة مظلمة ويوصد الباب عليه.

في الصمت والظلام تذكر وجه الغريب. استلقى على أرض الغرفة. كانت هناك رائحة غريبة وكريهة تنتشر في الصمت المظلم.

4

ـ أين الآن؟

ورغب أن ينام وأن يحلم وما كان كئيباً. كانت المدينة راسخة فوقه. وتنامت إلى سمعه أصوات ممزوجة بالألم والرعب والجنون. إنها تأتيه مع كثافة الروائح، وكان ذلك يشبه ضجيج البحر. ونفذت الرائحة والأصوات مخترقة مسام الجلد، ثم حملته خارجة به نحو عوالم قديمة. ورأى سهولاً خضراء وسواحلَ بحار غارقة في شفق الغروب الهادئ.

وعلى الشواطئ توزع فتية عراة يعبثون بالرمل، يفتحون حفراً ويقيمون تماثيل من القصب والرمال. ثم يثبون كالأرانب فوق الشواطئ البراقة. بينما تمدد الآخرون فوق الرمل الحار يمتصون الأشعة ويحلمون بفتيات عاريات نضرات، أجسادهن كالماس. وعلى مسافة كانت هناك جزيرة امتدت كالتمساح فوق سطح البحر.

قال أحد الفتية: لماذا لا نبني طوفاً من القصب نعبر به البحر إلى الجزيرة.

وعقَّب آخر: يقال إن الجزيرة مليئة بجنيات البحر.

واشتعلت حماسة الفتيان، فبنوا طوفاً من القصب ثم دفعوه نحو الماء وتعلقوا بأطرافه وراحوا يغنون. كانت الجزيرة على مرمى البصر، وكانوا يبحرون نحوها بنشوة، وفي عرض البحر ضحكوا وتراشقوا وتحدثوا بكلمات ماجنة وساخرة عن الفتيات وصخور البحر والحيتان وأقراش الماء وأعشاب البحر التي تلتف حول الجسم وتغدره.

قال أحدهم: في بحارنا لا توجد كلاب بحر ولا أقراش ولا دلافين. أساطير قديمة رواها الآباء والأجداد جهلاً وخوفاً.

كانوا حول الطوف القصبي والطوف مبحر، والجزيرة هناك ناتئة غريبة صلبة، وهم يهزجون ويثرثرون، بينما استوى البحر ساجياً، ملقى كجسد امرأة جميلة عصية على الأخذ. لقد أوغلوا دون أن يدروا داخل البحر وتحتهم امتدت الأعماق لامعة، رهيبة كملايين النصال المفتوحة.

كانوا الآن وحيدين داخل البحر، تحفّهم المياه من كل الاتجاهات، فوقهم سماء فسيحة تصطلي بوهج الشمس، وأمامهم المدى العاري والبحر.

قال فتى: البحر مخيف.

وقال آخر: البحر غدّار.

وقال آخر: لقد أوغلنا كثيراً والشاطئ بعيد.

ـ ها نحن وحدنا في عرض البحر.

واحتواهم المحيط. كانوا الآن على عرشه يُطْفُون. ولاحت في الأفق غيوم. بدت على شكل هضبات كامدة، وراحت تتحول طيوراً ضخمة تارة وتارة تماسيح. أشكال غريبة أسطورية لا علاقة لها بذرات البخار الصاعدة والمتكاثفة.

وانتبهوا. خط ملتوٍ كالجرح امتد بين الغيوم ما لبث أن اختفى. أعقبه صوت هزّ أركان السماء فاختلج منه الماء. لقد جاءهم البحر والرعد وذلك الأفق الكابي. وفجأة تحولت الأفراح الطفولية والمراهقة عن جنيات الجزيرة والصخور المرجانية واللآلئ والإسفنج والعري والشمس ولون البحار، إلى اختلاج داخلي منقسم على نفسه، ومتباعد. اختلاج امتلأ بالوهن والذعر والإيمان المباغت بالأقدار. الموت والنجاة يرقصان بحياد طبيعي على حد الموج المرهف كنصل السكين. وهدر البحر بصوته الوحشي الداوي. وبضراوته التي لا ترحم ضرب الموجُ طوفَ القصب وعمقَ هزيمُ الرعد، وخلف هضاب الأمواج المتلاحقة بدت سهب وتلال متقدمة، كأنما حركتها ملايين الجن المذعورة والراقدة قبل لحظات في كهوف البحر.

فوق الشاطئ كانت الشمس في سمائها مضيئة حادة، بينما راح الغيم في الغرب يتقدم متراكماً في لون الجبال الرمادية.

وندّت صيحة جارحة جاءها الموت في غلاف موجة قطعت الصيحة ثم اختفى الفتى، وتبع ذلك صيحات. كان الفتيان يصعدون الربى، مقذوفين بقوة اندفاع الموج، كطيور مهيضة ثم لا يلبثون أن يغوروا. وبدا أن البحر والموج أقوى منهم، لقد أُخِذوا على حين غرة. كم بَدُوا صغاراً تحت هذا الإعصار المباغت، وكم كان واضحاً حمق حماستهم والبحر يتخطفهم ويضرب بأجسادهم قاعه الرملي الناعم، ثم يرقدهم هناك بلا حركة.

كان صعباً أن يسمع أحد صوتَ أحد، وكانت المسافات قريبة ثم تباعدت.

لقد بدأ الانفصال والتوحد على سطح الغمر الفجائي فوق هذه الصحراء. هوى من هوى وحيداً خفيفاً. غاص ثم طفا ثم غاص ثم استلقى بلا صرخة فوق الرمل.

5

كانا الآن معاً ينسحبان بين الفزع والموت والوحدة والظمأ. وقال له: كم أنا عطش. وكان الماء تحتهما وأمامهما سراباً برّاقاً مَلِحاً.

وسأل: أليس ذاك هو الماء؟

وأجابه: عليك أن تصبر سنصل الشاطئ.

وقال له: سأموت.

ولم يكن الموت بعيداً. شاهداه في العيون التي جحظت ثم شعَّت رعباً وناراً ودماً ثم انفجرت. دخل من الفم والخاصرة واليدين والنحر والفقرات ثم استقرّ هناك. كان الموت في البرق والفضاء والبحر والزبد والأصوات المسموعة والخفية. وقال الذي في حلقه عطش كثير: إنني أموت.

بدأ الآن يسحبه خارج مدار الموت. ناجياً بنفسه وبه. اللذان بقيا ونَجَيا بأعجوبة ها هما يقتربان من الشاطئ والشمس.

وقال عبد الله: قل لنفسك لن أموت مرة ومرة ومرة. لست أكثر مني ظمأ.

كان عبد الله يحمله على ظهره مترنحاً تحت وطأة جسده.

ـ نحن وحدنا؟ سأل رفيقه.

واقترب نورس فاتحاً منقاره، فانقضّ عليهما فهويا لاصقين بالرمل. غطاه بجسمه فمرَقَ النورس فوقهما ثم ابتعد. وأنهضه عبد الله ثم مسح الرمل عن وجهه وجسده وتابعا.

ـ هذه الشمس اللعينة لو تغيب. قال عبد الله في نفسه.

كانا الآن بعيدين عن الدويّ وصياح النوارس، لكنهما كانا قريبين جداً من هذه الأشعة الوضاءة التي تخترق كل مسامهما.

وقال اليائس من الحياة: هل ننجو؟

ورد عبد الله: استعنْ بالذي يُستَعان به.

ـ لم يبق في الجسد ما يُعين.

ـ قل لنفسك إنني قوي. النفس تؤازر الجسد في أوقات الضيق.

6

بغتة امحّى البحر كومضة نيزك في كابوس طويل. ابتلع في جوفه مدناً وأطفالاً ومسرات وآلاماً. سلالة كان الموت ينمو فيها ويزهر، اجتاحها البحر بغضبه المفاجئ، ثم جاءت الصحراء بكل وهجها فبدت امتداداً كابوسياً آخر.

بحر آخر من الرمال كانا يجرّان أقدامهما فوقه.

ـ خلِّ جسدك في ظلي. وخلع عبد اللّه قميصه ثم نشره فوق رأس رفيقه ليحميَهُ من الأشعة.

وقال المتعب: لكن الأرض تنبت ناراً. وبان على وجهه مكثفاً أقصى ما يمكن لبشري أن يعاني من عذاب. وتساءل عبد الله: من

يكون في هذا الوقت الحزين؟ في هذه النقطة من الزمن الرجراج. حيث الماضي والحاضر والمستقبل يبدو ذرة راقصة في مسار ريح السموم. ذرَّة مفصولة تتدحرج بسرعة جنونية على سفح هذا الإعصار.

كانت الشهب ماتزال تتساقط فوق شبكية الذاكرة.

وتذكر كيف أحرق هويته فوق مرج من العشب الخضل. كان يتأمل النار وهي تتقدم على أطراف البطاقة الخضراء. بدت النار كزهور برتقالية وهي تمحو الكلمات وتلفح الصورة الملصقة. لابد أن لون صورته الملفوحة آنذاك يشبهه الآن. بدت البقعة المحروقة بعد الترمد ككَدمة في جلد غضّ. تلك الكدمة الشبيهة بالوشم البدائي حرَّرته. أحس بأنها أورثته غبطة داخلية. ردَّت إليه اسمه الحقيقي الذي استُلبَ منه: أحمد الهلال العوض الجنّابي.

يومذاك وثب في الفضاء وراح يردد اسمه. لقد أصابته نوبة من الفرح والحزن والبكاء والضحك: سلسلة أخرى انكسرت.

وشعر بعطش شديد فاشترى خمراً وجرى نحو البراري. جلس في ظل شجرة وحيدة وبدأ يشرب ويغني ويسقي جذع الشجرة حتى ثمل ونام.

7

رمل يفضي إلى رمل وشمس تنفث ناراً. فراغ مضيء يكاد يعمي البصر. أمامهما وخلفهما الصحراء والوقت ضحى. وقال أحمد لنفسه: لقد سقط شيء قديم تحت هذه الشمس المتوهجة. سقط في الأعماق المظلمة من البحر وصار إلى طحلب.

هو الآن في منفاه. قطع حبل السرة وانزلق على صدر النوء. لا يختلف كثيراً عن هذه الوحوش التي تجتاز هذا التيه الحاد، والتي تبحث عن حياتها بين جثث مُزِّقت كالخِرق، فانتشرت روائحها على مدى الصحراء. كانت الوحوش تنهش تلك الرمم وهي تجرها نحو أوكارها. جثث آدمية عارية تفسخت تحت القيظ على حافة حفر لا تشبه القبور. كانت هنا محروقة نائمة، بعضها بلا أذرع وبعضها بلا رؤوس، وبعضها جَوَّفت جماجمها وعيونها الصقور.

ما كانت حزينة ولا فرحة. فقط بدت هادئة ومستسلمة لإغفاءة طويلة.

وشعر أحمد بموجة من الغثيان تصعد في صدره وبدأ الآخر يرتعش. فجأة صاح مشيراً إلى الذئاب والجثث: عبد الله. الموت. الموت. ثم هوى فوق الرمل. وجثا قربه. وضع رأسه على فخذه ومد أصابعه إلى وجهه وصدره يمسح ويضغط عليهما، وعبرت نسمة لافحة حملت معها روائح الجسد فاندفع القيء من حلقه. سائل حار أصفر لزج ممزوج بالملح والرمل. تدافع القيء من الصدر الذي راح يختلج بضربات متواترة. وخيل إليه أن الآخر على وشك الاحتضار وهو يدفع بأمعائه ويئن أنيناً حيوانياً لا صلة له لا بالبشر ولا بالحياة: دعني. سأموت.

8

صاحت المرأة فزعة: ما الذي تفعله؟

وقال: أفصد دمكِ لنتآخى.

وقالت المرأة: ولماذا تفصد السرّة؟

وقال: من هنا بدأت حياتنا الأولى ومن هنا تنتهي.

وبشفرة حادة قطع السرة بصليبين فانبثق الدم. غمس شفتيه بالدم وقبّل المرأة طابعاً على شفتيها دمها: أنت طليقة الآن.

بكت المرأة بكاء حارقاً وتشبثت به. قالت: هل تحقق لي رغبة؟ وسألها عن رغبتها فقالت: أن تنام معي.

وبين البكاء والدم، اضطجعا. كان جسدها يتنفس بهدوء وشبق واستسلام، بينما بدت الأشياء، كل الأشياء: الجدران وجسداهما والسرير والأرائك وثيابهما الخارجية والداخلية المتعانقة بصمت جنسي، والوقت الشبيه بقنبلة حُلَّ صمام أمانها، بدت كلها خارجة من مدارها وحجومها وشيئيتها، داخلة في هذا الدوار الوحشي اللذيذ الشبيه برائحة عذبة، عذبة، أثيرية وشفافة. رائحة ستقتل في ختام لحظة خاطفة متواشجة مع ضربة الشفرة في لحم السرة: اللحظة التي سيخرج فيها الوعي من بوابته المغلقة، مبعثراً راكضاً نحو جميع الاتجاهات ثم معيداً كالموج تشكيل ذراته التي تبددت فوق الشاطئ. لعلها أتت. أو هو جاءها. اللحظة التي يخطف بريقها الأبصار. والتي يحدث أثرها شيء حزين، مؤلم، لا نستطيع دفعه: ذلك ما ينبغي أن يكون عندما تنتشر في الهواء رائحة كريهة.

ومرة أخرى اندفعت المرأة في نشيجها. كان صوتها يهزّ جسدها والسرير والجدران. أمسكته وهو يخرج وقالت له شيئاً لم يسمعه. كان العالم مايزال يدوي ويلمع، وفي مكان ما كانت زهور بريّة تنبض وهي تحاول الخروج من تجاويف الأرض الصماء.

في الخمارة كانوا هناك يصخبون ويرقصون ويثرثرون، وامرأة تغني مطلع أغنية:

«في أول المساء حبيبي حارّ كالشمس.

ودودٌ كالحمل،

جسدُ حبيبي يطويني كبحرٍ في أوّلِ المساء

وفي الفجر يرميني كطوفٍ حطمَهُ النوء.

آه. حبيبي قاسٍ كوقت الحرب».

شرب ورقص وثرثر وغنى، وفي أواخر المساء اكتأب. حين اجتاز الشوارع رأى المدينة طافية مأخوذة بسكينة الظلمة. صوت البحر المطوِّق للمدينة كان يُسمعُ وهو يضرب الأبنية. صوت خافت يبدأ بالتنامي ثم الهدير، ثم فجأة ينفجر على الجدران.

وفي طرقات المدينة طاف بالأماكن القديمة. البيوت والمقاهي والخمارات والحدائق. أطياف ملونة تتناثر على صفحة البحر، تخرج من غشاوة عينيه شظايا لامعة وكامدة.

كانت المدينة بكل ضخامتها الفارغة تهوي الآن، بينما الموسيقى ترتفع. وإذ داهمه التعب والجوع والحزن استلقى على الأرض ونام.

9

ورأى أنه يسير في مروج خضر فسيحة. ورأى امرأة يعرفها. كانت هناك بعيدة.. بعيدة، فوق صخرة وقربها بحيرة زرقاء. بدت شبه مصلوبة، ذراعاها مرفوعتان نحو السماء وكأنها تضرع. لم يكن يسمع صوتها. كان نصفها عارياً.

وحاول أن يسير إليها، وبدت الأعشاب تحت قدميه غضّة كثيفة تغطي هُوَّاتٍ. كان يسير كمن يعبر الهواء ببطء ولم تكن المسافة تتقلص، وراح العشب يعلو حتى صار كالرماح ثم تحول إلى قضبان مسننة. وفجأة انبثق وسط المروج لهب أصفر وأزرق امتد منه لسان من نار لفح الجزء العاري من المرأة. ورأى النار ترعاها بهدوء، وأحس أنه مشلول داخل المرج المحترق. وشعر بالظمأ ورأى البحيرة تجفّ ويغورُ ماؤها، وتوهّج الفضاء بالتماعات بدت مزيجاً من الدم والنار. على صفحة ذلك اللمعان الغريب ارتسمت أشباحُ طيور قبيحة. حيوانات نصفها بشر والنصف الآخر حشرات لزجة تشبه العناكب وسرطانات البحر. أشجار متعانقة في أوضاع شبه جنسية. سفن معلقة في الفضاء صواريها تقطر دماً.

ورأى أطفالاً عراة تطاردهم حشرات تتعلق بمؤخراتهم ورقابهم وتمتصّ دماءهم. كان الأطفال يصيحون بأصوات غريبة مفزعة وسط الفضاء الملتهب. وظهر جسد أبيه خارجاً من العشبِ محمولاً في تابوت مفتوح وفي رأسه الشدخُ العميق حيث تلقّى الطعنة. وحاول أن يصيح ويهربَ لكن ذراع الأب امتدت نحوه. كانت أصابع الأب قوية متشنجة. طوَّقه بحنو حزين وبكيا، ورغب أن يعاتبه على ما فعل. وسارا معاً. ورأى الأب خارج تابوته والطفل على صدره. كان صدر الأب حانياً دافئاً، وكانا يتجهان صوب البحر.

وقال الأب: هناك كانت طفولتك. لماذا ضيّعتها؟ ووَدَّ لو يقول له: وأنت لماذا ضيعتني؟ لكنه سأله: أأنت حيٌّ لم تَمُتْ؟ وبكيا مرة أخرى بحرقة شديدة وهما يعبران الأرض الخضراء نحو البحر.

وتذكر المرأة التي تركها وسط النيران فرغب أن يعود. وقال الأب: أوصِلُك إلى شاطئ البحر. هناك سفينة تنتظرك تركبها وتبحر. إياك أن تلتفت إلى الوراء لئلا تتحول إلى عمود ملح. معك لا تأخذ شيئاً غير ذاكرتك. أنت لا تؤمن بالله أعرف هذا لكن الله غاضب، وسيجري نوءاً وستكون هناك أيام قاسية. ستمتلئ الأرض بالصراخ والفجائع. كل هذه السهول والوديان الخضراء تغرق بماء أحمر وأزرق. ستجيء أعوام مريرة سنوات جوع ويُتم وقتل وغربة. فلا يكون كهذا إلا يوم الحشر. هذه لم تعدْ أرضك الآن وهذا ليس زمانك. هيا. انظر لقد لاح البحر وتلك النقطة البعيدة هي السفين.

10

كجريحين كانا يترنحان فوق الرمال الحارة. في الأفق لم تلُحْ آثار لبشر. كان الفضاء الحارّ يُصدي بصمت هذه القفار الموحشة مختلطاً بالجوع والتعب والظمأ.

وسأل الرجل الثاني: متى نصل؟

وقال أحمد الهلال: أوشكنا.

وقال الآخر: أشعر بالموت يمشي في دمي.

وقال أحمد: هي ذي صخرة. تشجع لنصلها. الغروب يقترب.

وغاصت أقدامهما في الرمل. سقط الآخر: اتركني. إنني أموت.

جاهد حتى نزع قدميه، ثم انحنى فوق الرجل المُلقى. كان قلبه مايزال ينبض. رفعه قليلاً ثم مد يده اليمنى بين فخذيه

وباليسرى تناول يديه، وكما يُحمل الجريح في الحرب، شالَهُ عن الرمل ومدّده فوق رقبته وظهره، وتابع المسير منحنياً يغوص في الرمال ويتعثر ويكتوي.

كان نبض القلب خافتاً. أحسه فوق ظهره يختلج بوهن. كم بدا صعباً تركيز الأفكار وحشدُها في ذلك الوقت. إن شيئاً متحركاً يشبه الحجر أو الكرة يعبر في فضاء أبيض. يعبره بقوة الريح أو الاندفاع. طاقة الروح تتجلى الآن بعد أن أُصيبت الكتلة بخلل: النفس تؤازر الجسد في أوقات الضيق. كانت الصخرة تلوح قريبة، بعيدة، خلف سراب بدأ يبهُتُ مع ميلان الشمس نحو الغروب. كل الأفكار والقوى الداخلية المشعة تندفع، منجذبة نحو نقطة مغناطيسية واحدة لا تحيد عنها: الصخرة.

حين وصلاها كانت الشمس تضرِّج الأفق. أنزله برفق وسحبه حتى أسنده إلى ظهر الصخرة وتمدد قربه. ووضع يده على صدره ومسح عرقه. بدا وجهه كأن الدم قد سُحِبَ منه. عينان مُسبلتان جفناهما كورقتين ذابلتين سقطتا منذ زمن، ولم يكن ينقصه إلا حفرة يمدِّده فيها ويختفي هذا الجسد المائل على حافة الموت. كان من الصعب معرفة ما إذا كان قد مات فعلاً أم هو حي. ووضع سمعه على صدره. سمع ترجيعاً ضامراً يترنح في أعماق الصدر. وقال أحمد الهلال يبدو أنه مازال حياً. ضغط على مهل قدميه وحرك ذراعيه ثم مسح صدغه وخلع قميصه، وراح يرفرفه أمام وجهه علَّ بعض الهواء يندفع نحو رئتيه.

غربت الشمس. وفوق أمواج الرمال انتشرت ظلال رمادية. وخيّم على الصحراء صمت. كانت الصحراء موحشة وكئيبة، لكنها بدت ندية بعد أن انطفأت طبقة الهجير والأشعة المتراكمة فوق سطح الرمال.

فوق الكثبان كان الصمت يُرى وهو يزحف زحف هذه الظلال الشاحبة. كان الصمتُ يسمعُ من خلال هذا الهدوء الجنائزي، ومن هذا الصمت كان يخرج شيء رهيب جليل مُتوقَّع لا يمكن تسميته. ظلال الحياة والموت المتداخلة تموَّجت ثم تجمعت في حشرجة صعدت من صدر الرجل. فتح عينيه فرأى أحمد الهلال الجنّابي جاثياً قربه يلوح بقميصه:

ـ أين... أنا؟

ـ غابت الشمس. أنت مازلت حياً.

ـ ماء... ماء.

ـ بعد قليل يهبط الندى.

أعلى الصخرة نشر أحمد قميصه ليندى. وردّد الرجل كلمة عطشان مرة أخرى. قال أحمد: عند منتصف الليل يندى القميص فتبلّ ريقَك ووجهك. حاول أن تنام قليلاً.

تمدَّدا بهدوء فوق الرمل. كانت رطوبة الليل تتمخض على مهل من رحمِ قيظ النهار. وفجأة تخلخل المحيط السُّهبي بدويّ عميق بعيد لم يسمعه الآخر الذي دخل محيط النوم.

وتساءل أحمد: ما هذا؟

كان رأسه ثقيلاً رجراجاً، وفوق عينيه تدلَّتْ كتل رصاصية بدأت تهبط به نحو أعماق الظلام. وفي مكان ما من نفسه، كانت قطرة مضيئة تسقط كلما حاول النوم. كانت القطرة توقُعُ رنيناً على سطح الروح فتظل بقعة مركزية في حالة صحو وإضاءة، بينما الأطراف تتّشح بغلالة النوم.

هناك كانت الصور والأصوات والحركات والروائح، تثِبُ وحشية حزينة متشابكة. كم بدا من الصعب تنقيتها والتركيز على

أيّ منها. كالبرق كانت تُومض وتنطفئ، داخلة مداراتها خارجة منها، كأنها نيازكُ تتشظى في سماء محترقة. لقد بدا محالاً اعتقالُها في مدار زمن محدد. تأتي وتختفي كفقاعات على سطح موج هادر، لا تكاد ترتسم على سطح ذلك المحرق حتى تأتي موجة أخرى تلاشيها. وحدّث نفسه: لابد أنني في حالة غير واعية. كيف ندرك هذا الذي حدث؟

بهدوء كان يراقب النجوم والسماء العكرة. وتساءل: أين يكمن الخطأ؟

ومرة أخرى دوى انفجار هائل، هزّ الأرض والفضاء وانتفض الآخر مذعوراً.

طوّق الرجل عنق أحمد: ها هم يقتربون. دعنا نهرب.

وقال أحمد: لابد أنهم يدمرون مخازن الذخيرة لا تخف لقد انتهت الحرب. عُدْ إلى النوم.

حملت الريح رائحة غبار مضمّخ برائحة الحرب. ومن بعيد ظهر الأفق جسداً باهتاً مسجّى فوق صدر الصحراء.

داهم الحزن نفس أحمد الهلال، فأحس بوحدته في هذا العالم الخاوي الذي بدأ يتحلل وينهار على مهل. هبطت عليه سكينة: كنا جماعة وها نحن الآن اثنان وفي النهار القادم ربما صرت وحيداً يا أحمد الهلال العوض الجنّابي. كم كان فاجعاً للروح هذا الذي حدث!

في منتصف الليل أيقظ رفيقه. كانت النجوم تلمع في سماء صامتة. صار مريحاً السير تحت ضوء النجوم. تناول القميص

المنشور فوق الصخرة. كان مبللاً بالندى الممزوج بالعرق. تلجلج الآخر: عطشان. أين الماء؟

طوى القميص ثلاث أو أربع طيات وبدأ يعصره في فم الرجل. كان الرجل يلعق قطرات الماء ممتصاً حواف القميص المدلى فوق فمه. وفجأة اختطف القميص وراح يعضّه بوحشية ويسحب ماءه القليل بين شدقيه، وبعد أن اعتصره قطعة قطعة، فرده فوق وجهه ماسحاً به صدغه ورقبته ووجنتيه. انتعش. تنفس بعمق وارتياح فلمعت عيناه الرطبتان في الظلام.

- كيف ترى نفسك الآن؟

وقال الآخر: بدأت أشعر بالحياة. إنني مدين لك بحياتي.

- أنت قوي.

- لست أدري كيف سأكافئك. لم أكن أصدق أنني سأعود إلى الحياة مرة أخرى.

- تستطيع أن تسير الآن؟

- إلى أين؟

- وجهتنا القبيلة. ربما وصلنا مع الفجر.

ونهضا. سارا تحت النجوم في سحر رطب وسكينة استرخت بعد يوم عاصف.

- هل تعتقد أننا نجونا؟

في جيب أحمد كانت هناك بقايا تبغ معروقة ملتوية. أعطى رفيقه سيجارة. ونفثا الدخان بغبطة رجلين خارجين من حالة موت. كانا يسيران ببطء فوق الرمال الطرية: أعتقد أننا اجتزنا

منطقة الخطر. كان الآخر أقل تعباً لكن خوفه لم يبارحه. وتحدث مع أحمد عن حلم مشوش، لا يذكر منه غير تابوت أخضر رآه يطير فوق الصحراء، وعلى خشب التابوت عصافير عارية زرقاء تشبه لون الشمس وهي تغرب. ثم تهب ريح شديدة وغبار فيختفي التابوت والعصافير.

وسأله عن معنى الحلم فقال أحمد الهلال: كان هذا من تأثير العطش عليك.

وفكر أحمد بالقبيلة. قبيلته التي انحدر منها قبل أن يهبط المدينة: أهي هناك ماتزال أم أنها رحلت مع الذين زلزلهم الوقت بصيحته المفاجئة؟ ولكن كيف تلقاه هو العاق الذي قتل أباه وفرَّ في ليلة حالكة يهيم وحيداً ملعوناً عبر الصحارى؟

وإذ تقدما عميقاً في الصحراء، سأله الآخر عن القبيلة. وراح أحمد الهلال العوض الجنّابي يحكي عن الجد الأول الذي نجا من دمار مدينة (هجر) ومعه سيفه وحصانه ضارباً في أعماق الصحراء، وكيف آوى وحيداً إلى كهف في سفح أحد الجبال يصطاد الطيور والأرانب والوعول، يأكل لحومها ويرتدي جلودها، ثم روى كيف اشتاق ذات مساء إلى امرأة خطفها من مضارب البدو، نام معها فولدت له بنات وبنين تزوجوا وعمّروا المكان.

ومع الزمن ازدادت السلالة. كانت سلالة غريبة لا ديانة لها ولا آلهة غير الريح والشمس والمطر والرعد. علمتها تحولات الطبيعة أشياء كثيرة خارجة عن طقوس البشر المحيطين بها. من الريح أخذت الرسوخ وبناء منازل في الصخر، ومن الشمس تعلمت غرس الأشجار والكشف عن الينابيع، وعلمها المطر كيف

تحرث الأرض وتزرعها، وأعطاها الرعد قوة ضارية تواجه بها الغضب والفوضى والغارات المفاجئة.

ربما لم تسمع يوماً بهذه القبيلة الخارجة ولا تعرف مكانها، وربما تقول بأنني أهذي أو أحلم. لكنها هناك قائمة في الطرف الأقصى من الصحراء، وأنا منها ولسوف تراها يوماً إذ يأتي أوان خروجها. هي من الأعراب وليست منهم. قبيلة الجنّابي التي ستملأ الأرض يوماً بالعدل بعد أن ملئت بالجور والطغيان، والتي تعرف كيف تحارب ولا تنهزم. لأنها تعرف كيف ولماذا ومتى تبدأ الحرب. إنها الآن تنمو نمو الجذور في أعماق الأرض. تبني أسسها فوق الصخر. تحرث وتزرع بدأب. وتشترك في اقتسام العمل وجني الغلال. لا أحد يكذب ولا أحد يخون. المرأة والرجل معاً في الحقول. معاً في الساحات. معاً في المدرسة. ثمة وقت للخمر والفرح واللذة، وثمة وقت للعمل. لا أحد يملك شيئاً في القبيلة: الأسلحة والأراضي والمواشي ملك الناس جميعاً. يدير القبيلة مجلس من القوم يجدد كل عام. يُختبر الرجل بالمرأة والعمل والخمر والصيد واختراع شيء جديد. بيوتهم لا تغلق في الليالي وقليلاً من الحزن يعرفون، وبلا أي احتفالات دينية يدفنون موتاهم. في أوقات فراغهم يرسمون وينحتون ويرقصون ويغنون ويزرعون الأزهار. قوانينهم لا تعرف السجون أو الإعدام، والذي يقتل ينتحر تكفيراً عن خطئه أو يهجر القبيلة. هذه القبيلة هي ما تبقى من الأمل في حياتنا.

كان الآخر يستمع مدهوشاً، بينما أحمد العوض الجنّابي يسترسل في حديثه الغريب الغامض. لقد بدا خلال الحديث مأخوذاً كأنه في غيبوبة. اكتسى وجهه حالة من الفرح والغضب والتأثر. وكان صوته يرتفع وينخفض بإيقاعات يقين راسخ شبه

مطلق. ومن عينيه شعت نيران بدت كأنها تنير دروب الصحراء المجهولة. كانت تلك النيران تضيئه وتفعمه بقوة خارقة أنسته كل التعب والجوع والظمأ ولفح الصحراء.

لقد تحدث أحمد أخيراً. كشف عن سره العميق في هذا الليل الصامت الخالي من كل ضوء غير ضوء النجوم البعيدة. حدد مواقع القبيلة وشرح هواجسها وخطوات عملها، وعندما سأله رفيقه: هل تعتقد أننا سنصلها؟ هز رأسه: ستصل أنت. سأعطيك علامة يعرفونك من خلالها. لن أتركك حتى نصبح على مشارفها. أنا لا أستطيع الدخول.

12

كانا الآن على أبواب الفجر، خففت رطوبة الصباح المقترب مرارة العطش ومشقة المسير. لم يكن يُسمَعُ في طيف الفجر غير خبّ الخطوات الوئيدة فوق الرمل. أية رحلة غريبة في أعماق هذا المدّ الصحراوي، بعد أن انكسرت الأشياء انكسار شجر جاءته الصاعقة فهوى تحت القصف دونما مقاومة!

أعطاه الوقت الندي بعض الغبطة. صار بالإمكان تركيز الأفكار ورؤيتها بشيء من الوضوح. كان واضحاً أكثر من أي شيء أن حياة برمّتها قد تقوّضت الآن، وأن حياة أخرى لابد أن تُبنى فوق هذه الأنقاض. ينبغي أن تبدأ دورة الوقت بالانعطاف نحو الأمام هذه المرة. سقط الماضي والحاضر. الزمن الذي كان متوقفاً أو ملتفاً حول نفسه انتهى، وبدأ زمن القبيلة. زمن الريح والرعد والمطر والموسيقى والعمل والخروج: الزمن القادم.

كانا يصعدان تلالاً كساها بعض العشب، ورأى أحمد الهلال

شهاباً يخترق السماء كرمح مضيء لم يلبث أن خبا. وشعر برعدة خفية وهو يرى النيزك الذي اخترق الأرض واحترق. وسأل رفيقه إذا كان قد شاهد الشهاب الومِض وقال له: أتعتقد أنه نذير شؤم؟ واكتفى أحمد بكلمة. أحياناً تبدو حياة الإنسان كهذا النيزك.

عندما وصلا إلى أعلى التلال فاجأهما مشهد مدهش. على مدّ البصر بدت سهول خضراء كأنها مروج من الحرير المتموج. بحار ممدودة من القمح والعشب. خضراء.. خضراء، تفيض بالبهاء والألق وأمواج الريح. نظرا إلى بعضهما. شعر كل منهما أنه يخضرّ ويمتلئ بالنسوغ والعصارة والانبهار. لم يكتم أحمد الهلال العوض الجنّابي صيحته: أرض القبيلة الخضراء. هاي.. هاي.. هذه تخومها.

وكالنمر اندفع باتجاه المروج. طوّق سنابل القمح وقبلها. واستلقى على العشب يتشمّمه ويمرّغ وجهه في ثناياه الطرية. حفَن من الأرض حفنة من التراب، فَرَدَها فوق راحتيه ثم مسح بها صدغه ووجنتيه. كان للعشب والقمح والتراب رائحة عبقة تنفذ حتى مستقر الروح. لم يتمالك وهو يشم الرائحة فانخرط في بكاء حارق. امتزجت دموعه بالتراب والعشب. لم يكن يعرف إن كان يبكي أو يغني.

ومن الشرق جاء الصباح. كان فجراً جديداً نديًّا مدهشاً، أضاء السهول الخضر، وروح أحمد الهلال العوض الجنّابي الملقى وحيداً هناك في أعماق الظلمة.

عندما اقتادوه من أعماق الأرض المظلمة الرطبة، لم يكن في حالة واعية. كان مايزال في حالة غياب. كم بدا الكابوس طويلاً

ثقيلاً وهو رازح تحت تأثيره. لم يكن يعرف من هو ولا أين يكون ولا ماذا يريدون منه. هو الآن يتدحرج بين أيديهم. وإذ خرجوا به إلى النور أحس بصدمة الضوء. بُوغِتَ بعالم غريب. في غرفة خاصة رأى رجالاً في ثياب رسمية أنيقة نادوه باسمه فلم يجب، وسألوه عن اسمه الحقيقي فابتسم ببلاهة ودهشة طفل. وسمعهم يقولون: حدثنا عن أحلامك بعد الحرب، ولماذا كنت تتشرد في الشوارع، وتضرب الحجارة على الجدران والنوافذ وتتحدث إلى الأشجار والمارة عن الحرب. ثم طرحوا أسئلة حول الموسيقى والصحراء والبحر والمطر والرعد. وما معنى عبارة: انتهى الوقت الميت وجاء الوقت الحيّ. ومعنى كلمة: للحياة وجهان: وجه الطفل ووجه الوحش، وفي الزمن الميت يظهر الوجه الثاني. احذَروا الوجه الثاني فتحْتَ جلده مِدْيةٌ للذبح.

كانت الأسئلة تُلقى فتصطدم بأذنيه، لكنها لم تكن لتستقر في نسيج إدراكه. وأخذ يصارع في داخله للعودة إلى حالة التوازن والتلقي الطبيعي ليرى ويسمع جيداً. ليتذكر من هو وكيف زُجَّ به في هذا العالم الغريب، ثم ليتعرف على هؤلاء الغرباء الذين يواجهونه ويطرحون عليه أسئلة لا يستطيع الإجابة عليها. لم يكن المحققون يعترفون بحالته. كانوا يطرحون الأسئلة ويطلبون الإجابة. وعندما جابههم بالصمت اتهموه بالتهرب من الأجوبة. طلب أن يُعطَى استراحة واعداً أن يجيب على أسئلتهم، لأنه مصدوع ولما يعتد النور بعد. بعد استشارة سمحوا له باستراحة قصيرة. اقتيد إلى غرفة خاصة ثم أُرتجَ عليه.

في الغرفة حاول أن يتذكر. كان بين الوجوه التي رآها في قاعة التحقيق رجل يعرفه. لابدّ أنه رآه في مكان ما. على ناصية الشارع أو على شاطئ بحر أو في صحراء. جاهد كي يخرج من

حالته ومن تأثير الكوابيس التي اعترته وهو مرمي في الظلام في قاع الأرض. وسأل نفسه إن كانت محض رؤى أم أنها وقعت فعلاً في مكان وزمان محدَّدين. وضغط صدغه ماسحاً بكفه على عينيه محاولاً إزاحة هذه الغشاوة المفاجئة التي اعترضته. وهو مغمض العينين عادت المدينة والبحر والصحراء ترتسم مرة أخرى، وتذكر فجأة أن رجلاً غريباً أخذه عندما كان مستلقياً على ناصية الشارع، وجهد ليتذكر لماذا اقتاده. عبر به الرجل الغريب أزقة مظلمة وكان الغريب يتحاشى النظر إليه. وسأله: إلى أين يأخذه؟ ورد الغريب إنه يعود به إلى بيته لأنه مخمور. لكنه أخبره أنه بلا بيت ثم أضاف بأن بيته دمرته الحرب. وتذكر صرخة الغريب: إلى متى ستظل تهجس بالحرب أما كفاك ما فعلت؟ وسأل الغريب في أي وقت نحن؟ ورد عليه الغريب بنزق: مجنون. أنت مجنون. وقال: لا. لست مجنوناً. إنني أسأل عن الوقت. وقال الغريب: بل أنت مجنون ومحرِّض. ماذا يعني كلامك عن الحرب والحرب قد انتهت؟ وسأل: هل انتهت الحرب فعلاً؟ وصمت الغريب. كذلك تذكر أنهما عَبَرا حياً قديماً.

وفجأة قدمت سيارة. أشار الغريب إشارة خاصة فوقفت السيارة، ولما استدار الغريب ليدفع به داخلها لمح وجهه على ضوئها. أصابته رعدة وهو يتذكر الوجه الذي عرفه الآن. كان الغريب هو رجل القاعة وصديق البحر والصحراء.

وضغط على صدغه وهو يحرك رأسه منتفضاً: هل كانت معركة البحر ومسيرة الصحراء كابوساً أم لا؟

وفجأة سمع صوت المفتاح ثم ظهر جنديان مدجَّجان، اقتاداه وعَبَرا به رواقاً، ثم انعطفا به نحو دهليز منخفض، وامتدت الدهاليز والأروقة بين الصمت وصلابة جدران باهتة

توحي بالفزع والموت. كان الجنديان يُمسكانه من ذراعيه بقوة وأصابعهما تنغرس في لحمه. كم رغب أن يتحرر من قبضتيهما ليسير بهدوء ودَعة بينهما، دون أن تخطر في نفسه فكرة الهرب أو النجاة. كانت الدهاليز والأروقة تنعطف نحو الأسفل لتنتهي إلى رواق طويل معتم، في نهايته انتصب باب من الفولاذ، فتحه أحد الجنديين فصدر منه أزيز أصمّ جارح، وظهرت من الباب ساحة، وإذ دفعه أحد الجنديين من الباب الحديدي، واجهته الساحة بجدرانها الإسمنتية العالية. كانت دائرية في صدرها مسرح عليه منصة ومقاعد، وفي المواجهة صُفَّت مقاعد خالية. إنها هنا جاثمة بثقلها الإسمنتي القاسي يكتنفها الغموض وعدم الألفة، تحتويه داخل جدرانها الصلبة القديمة. لقد بدت كحفرة واسعة منظمة في قاع الأرض، قُطع بينها وبين السطح الآخر للأرض كل أسباب الحياة والضوء.

أجلسه الجنديان على أحد المقاعد الأمامية فأحس ببعض الراحة. رأى الساحة مفتوحة من الأعلى على سماء ظهرت فيها نجوم، كانت وحدها توحي بالألفة وبعض الأمان. هبط بصره نحو السور المطوّق للساحة فرأى أشباح جنود مسلحين. كانوا هناك منتشرين على حواف الجدران وبنادقهم في أيديهم. ثابتين كالتماثيل في وضع متأهب.

موجة انقباض تصعد من الأعماق. شيء ثقيل يضغط أضلاعه يكاد يمنعه من التنفس كما ينبغي. لم يكن هناك هواء. روائح قابضة. شيء ما ملوث. بدا الزمن متوقفاً أو هو يدور حول نفسه بحركة لولبية تنحدر. وشعر كأنه موثق بكتل من الإسمنت وجسده يغوص في أعماق بحر: كن حذراً من وجه

البحر الآخر. ولكن من أين جاء هؤلاء الذين سقطوا في أعماق البحر؟

هل قذفهم الموج فعادوا أحياء؟ لقد رآهم هناك يغوصون في اللجج العميقة ويستقرون في القاع. ها هم هنا مرة أخرى ولابد أنهم يطوفون المدينة الآن. يملؤونها من جديد. كما لا بدّ أنهم هُمُ الذين جاؤوا به إلى هذا المكان. كان كابوساً إذن كل ما هجست به النفس. شقٌ من شقوق الأرض يضغط. يخنق زهرة في طور الانبثاق. هل كان عبثاً كل ما فعله؟ مرة أخرى هوذا الزمن الميت يعود. الزمن اللولبي المنحدر. زمن الرصاص والجنود والموت. ولكن متى يقبل الزمن الحي؟ زمن القبيلة الأخضر. أين القبيلة الآن وهل وجدت حقاً؟ لا. لم تكن وهماً. إنها هناك في الأعماق. في الطرف الأقصى من الصحراء. أسسها في الصخر. أراضيها خضراء وأسلحتها تُسَنُّ بحجر البرق والرعد. تنتظر زمان خروجها: الزمان القادم.

حاول أن يتأكد من الوضع الجديد الذي هوى فيه. أرجَحَ رأسه يميناً وشمالاً وفتَحَ عينيه حتى الأقصى. هل هو حزين؟ هل هو متألم؟ في أية نقطة يقف؟ وما اسم هذه الحالة؟

كان كبحيرة راكدة تصطدم الأشياء بسطحها. ترجّها لكن لا تعكرها. بدا كأنه على حافة جرف مهدّد بالانهيار. ورأى أناساً يقبلون ويجلسون على المقاعد. كم بدوا غرباء ومتجهمين. لقد أحدثوا بعض الجلبة، ثم فجأة خيمت سكينة كسكينة المقابر.

نودي عليه فلم يتحرك، وأقبل جنديان اقتاداه من مقعده وأوقفاه قرب المنصة.

كانت الساحة شبه مضاءة، لكن غشاوة شفيفة كانت تريه

الأشياء كالأشباح. أحس بالصقيع تحت جلده وبالتعب فشعر برغبة حارة في النوم. وسمع همهمات مبهمة وكلمات وأسئلة. وتحولت الأسئلة إلى اتهامات غريبة حول الفوضى والتحريض والمرض والعصاب وحالات الفصام. كان الذي يتّهم يرفع صوته ثم يتشنج وهو يتحدث عن القبيلة المعادية والعِرق الخارجي الذي ينبضُ منذ آلاف الأعوام. وسمعه يقول: إن عبد الله بن أنس ليس وحده، ورغم أنه يبدو مصاباً بفوضى الدّم ولوثة العقل إلا أن هذه الفوضى منظمة وذات أهداف بعيدة المدى. إنّ قطع الصلة بين الماضي والحاضر وظاهرة الاحتجاج الشخصي ليست مسألة استثنائية، وهذا الإنسان الذي يبدو مختلّاً ليس محايداً وليس وحيداً. لقد تحدث في الشوارع والمقاهي والمعامل والخمارات والمدارس والحقول عن أمور خطيرة. عن استمرارية الحرب. وقد سماها بحرب الطبقات. أجل ذلك ما قاله بالحرف. وقال أكثر من ذلك. اسمعوا كلماته جيداً: «إن هؤلاء (ويعنينا نحن) أشدُّ عداوة لشعبهم من الأعداء الخارجيين ولابدَّ من القتال ضدهم أولاً. المعركة هنا وليست هناك الآن. لابدَّ من قهر سلطة الجنود الفاشية أولاً».

كان أحمد العوض الجنّابي يستمع. الشيء الذي أراد الاعتراض عليه هو: اسمه. وإذ فكر بأن جميع الأشياء قد سقطت على جدران هذه الساحة سقوط طائر اصطدم بشَرَك أدرك الآن بأن لا قيمة لتغيير الأسماء. في أقل من ثانية لمعت فكرة بطلان الإنسان والحياة والمعاني، لكنها ما لبثت أن فرَّت ملتصقة بالجدران ووجوه وعيون الأشباح التي تلمع منتظرة هناك في الأعلى.

دفع المحقق سيلاً جديداً من الأسئلة حول الولادة وقتل الأب

وطلاق الزوجة والتوجه نحو القبيلة، ولما لم يتَلَقَّ عليها أي جوابٍ ركَّز على سؤال طلب الإجابة عليه بإلحاح: إنني أسألك سؤالاً محدَّداً عليك أن تجيب عليه وحده بتركيز: هل كنت تنادي بضرورة استمرار الحرب وهل سميتَها حرب الطبقات. أجب بنعم أو لا؟

ورأى أحمد الهلال العوض الجنّابي سِمَة الجِدّ والصرامة والتهيؤ في الرجل الذي يسأل، كما بدت ملامح المهابة والصمت المنذر على وجوه الآخرين فداهمته رغبة عميقة في الضحك بأعلى ما يستطيع. أن يطلق قهقهات عالية، أعلى من هذه الطقوس. ورغم أن السائل كان يعتقد بأنه دفع بأحمد نحو المصيدة، إلا أن هذا الذي يبدو مهماً كان في أقصى حالات الإعياء النفسي. كان يرغب أن ينام ويستريح فقط.

من أجل هذا تجاهل السؤال واكتفى بحك صدغه وإغماض جفنيه، وإذ أعاد المحقق السؤال بحنق ملحاً على الإجابة، فتح أحمد جفنيه ببطء ثقيل.

بهدوء طلب كرسياً فجاؤوه بكرسي. جلس ثم رفع كفه وأسند عليه رأسه ولم يَقُل شيئاً.

انتفض المحقق مصعوقاً: إن لم تُجِبْ ستموت.

آنذاك فقط تذكر على نحو مركّز أنه أمام قضاة، وأنّ حياته قد تنتهي هنا. كما مرت خطفاً ذكرى البحر والصحراء والدويّ والعطش والتعب، وأخيراً الموت: الإنسان في النهاية يموت إذن! يموت أو ينام ما الفرق؟

ما عاد يبالي بكل هذه المهابة والطقس الذي يجهد لكي يبدو مروِّعاً. لقد بدأت الأصوات والإيماءات تتحلّل متحولة إلى

نوع من الرنين المُصدي. تصطدم بأشياء صلبة ثم ترتد إلى مراكزها. كانت تدوي في رأسه كهدير أمواج البحر إبان العاصفة.

وفجأة نُوديَ على الشاهد. تقدم بثقة وثبات. اعتلى المنصة بحركة مسرحية. وبدأ يتحدث. ورآه. حرك أحمد جفنيه مزيحاً ثقل التعب والنوم. عرفه. باعتزاز راسخ كان الشاهد يُدلي باعترافاته واحدة تلو الأخرى دون أن ترتعش في جسده عضلة غير لسانه. شيء واحد كان يتحاشاه وهو يروي حادثة البحر والصحراء والوصول إلى تخوم القبيلة، هو النظر إلى عيني المتهم.

عندما أدلى الشاهد بكل ما يعرف واتّهم القبيلة وأحمد بأنها سلالة خائنة خارجة ومعادية للدولة كانت تعمل في الخفاء وتحرض على استمرار الحرب وتجهز نفسها للاستيلاء على السلطة، تنبه أحمد. أحس رمحاً يخترقه في الظهر، وبأن رأس الرمح قد وصل الآن حافة القلب.

خلال لحظة تشبه ومضة في ظلام عاد صاحياً. استعاد قوته وطاقته فاندفع الدم حارّاً في أعصابه. أحس بصدغه يلتهب. وبدأت نيران لا مرئية تتوهج وتتدافع في مجموع جسده. كانت رغبة النوم عبر تلك الإيماضة المشعة قد تنحَّت، وحلّت محلها رغبة نارية متوحشة: أن يقتل هذا الرجل.

لم يكن باستطاعته أن ينهض الآن. اختفت الرغبة وبدأت النيران تخمد. إعياء شديد انتشر مرة أخرى في الجسد. وأكثر من أي وقت مضى أحس بأنه وحيد لا يستطيع أن يفعل شيئاً. نظر حوله. كانوا هنا وهناك في كل مكان. عيونهم صلبة

أشعتها تتوهج توهج شفرة بيضاء حادة. وتلك الأشعة منصبة عليه الآن. وشعر بتلك القوة الغريبة الصادرة عن الأشعة وهي تجذبه نحو محرقها. لقد كان جاهزاً تماماً الآن.

بهدوء متعب نظر إلى الأسوار العالية. كان الجنود هناك في حالة استعداد ينتظرون خلوّ الساحة وبدء الإشارة.

14

عندما خلت الساحة بقي وحده للحظة، ثم فجأة فُتِحَتْ أبواب مغلقة اندفع منها رجال مُوَثقون. كانوا الآن معه وسط الساحة. لقد بدوا بعد أن سطعت الأنوار عليهم منتصبين كالشجر. كانوا هناك بجباههم المضاءة وعيونهم المشعّة بإيماضات سريّة، ثابتين؛ أبصارهم وصدورهم مشدودة بقوة غريبة نحو الجنود المتأهبين. كان الصمت يغطي الساحة الآن بجلال بهيج، بافتتان مدهش لا حدود له. وكانوا الآن وقوفاً فوق الضفة الخضراء على أتم استعداد دونما جلبة بانتظار المطر.

وكما تتتالى موجات من الرعد المتواصل، هكذا أقبل البحر طاغياً مجتاحاً وسط ظلام أُضيء بنجومٍ من دم.

حصين البحر 1970

الجوع واللصوص والقَتَلة

الجوع

قال الطفل لأمه ذات صباح: ماما. انظري لقد ابتلعت البواخرُ البحرَ. أين سنسبحُ؟

ضحكت الأم بصوت عالٍ. تابع الطفل: ماما. السيارات العسكرية تنام تحت الأشجار. أين ستنام العصافير؟

فَزِعَت الأم. قَطَّبت حاجبيها. صاحتْ: يا ولد ما هذا الكلام؟ قال الطفل: ماما. بابا قال إنه سيطحن لنا بذار الأرض. إذا فعل ذلك ماذا ستحضن الأرض في أيام المطر؟

هربت الأم إلى المطبخ. فتحت النافذة المطلة على البحر وراحت تنتحب.

قال طائر البوم لصديقته: لماذا لا تتزوجيني يا حبيبتي؟

قالت الصديقة: أنا أحب طائراً آخر.

قال طائر البوم: ولكني أحبّك جداً!

قالت الصديقة: أنت فقير. لا تملك غير هذه الخرابة وهاتين العينين الحادّتين والجناحين القويين.

قال طائر البوم كسيفاً: أنا أقدّم لك هذه الخرابة المقمرة تمرحينَ فيها وتسرحين. ماذا سيقدِّم لك صديقُك الثرّي؟

ضحكت البومة نافجةً ريشها: ها. ها. صديقي الثري سيقدم لي مدينة من الخراب لا قمر فيها إذا أطال اللّه عمر الملك السعيد.

رفرف طائر البوم بجناحيه، وفي اللحظة التي ترقرقت فيها دمعةٌ في عينيه الحادَّتين انتفض وغابت الدمعة. قال وهو يعلو في فضاء الليل: سأرحل عن بلاد الملك السعيد التي لا حبّ فيها. لكنك ستذكرينني يوم لا تلقين حجراً ولا غصناً تحطّين عليه يا حبيبتي.

مع الغروب عاد الرجل من عمله إلى بيته منهكاً. اغتسل ثم سأل زوجته طعاماً، فقدمت له طبقاً عليه رغيف يابس وصحن زيتون وبيضة مسلوقة. كان الرجل يأكل بصمت بينما المساء يتدلى في الخارج كوشاح أسود.

قطعت المرأة صمت الرجل: لم تسألني كعادتك عن وافد؟

انتبه الرجل: أنا مُتعبٌ حقاً هذا اليوم. أين هو؟

ـ نائم. أنا خائفة عليه.

ـ لماذا؟

ـ إنه يقول أشياء مخيفةً. ياسين قل لي هل فعلاً تنتقل الروح من إنسان إلى آخر عبر الأجيال؟

ابتسم ياسين وهو يأكل بنهم: ولماذا هذا السؤال السخيف؟

قالت المرأة: وافد ليس طفلاً. إنه يتحدث عن أشياء أكبر منه بكثير.

قال أبو وافد بعد أن انتهى ماسحاً آثار الطعام بطرف كمِّه: كل الأطفال يكبرون في مثل هذه الأوقات الصعبة.

سأل وافد أباه الذاهب صباحاً إلى العمل: بابا. هل الآباء يكذبون؟

قال الأب: لا!

قال وافد: منذ أسبوع وعدتني بطائر بوم صغير ولم تأتني به.

ـ وماذا لك في طائر البوم؟

ـ أحبُّ صوته وهو يغني في أوائل الليل.

قال الأب: من أين أشتري لك طائر بوم والجوع يقرع الأبواب؟

قال الطفل: لابدّ أنه سجين في سوق المدينة. وأنت ستحرِّره من سجنه.

صاح الأب: ولكن كيف عرفت ذلك؟

قال وافد: لأنه ما عاد يغني كعادته في الليل على شجرة الزيتون.

قال الأب مبتسماً حاضناً طفله الرائع بذراعيه الحنونتين: سيكون لك هذا الطائر يا حبيبي. إلى اللقاء.

طوّح الطفل ذراعيه في الفضاء مودعاً: لو كَذِبْتَ هذه المرة سأبحث عن أب آخر غيرك. هاه!

اللصوص

في إحدى الغارات الإسرائيلية المفاجئة على المدن والقرى الآمنة قاتل الطيار الباسل جرجس حناوي قتال الصقور. بعد أن أفرغ صواريخه ورشاشه في طائرات العدو، سقط كما يليق بالصقور فوق قمم الجبال المطلة على البحر.

جيء به إلى قريته متّشحاً بعلم بلاده في احتفال مهيب.

على باب البيت الريفي الفقير وقف الأب والأم. أطلقا زغرودة واحدة اخترقت الموكب والفضاء ومكثت في ذاكرة الأرض.

تساءل رجل: غريب انظر إليهما كيف يزغردان وكأنه عرس!

قال رجل آخر: أتعلم أنه وحيدهما وأنهما من فقراء الأرض. لقد كانا يُعِدّانه لأوقات الضيق.

قال الآخر: وهل هناك ضيق أكثر من هذا الضيق. تصوّر أن يبلغ ثمن كيس الطحين خمسين ليرة!

ضحك الرجل مستهزئاً: سيبلغ المئة إذا أطال الله عمر الملك السعيد.

زخات من الرصاص انطلقت تحيةً للشهيد الصقر لكن إحدى الطلقات الطائشة استقرت في ظهر الرجل المُستهزئ.

سوق المدينة واسع وطويل وملتفّ فوق الأرض وتحتها. يخترق المدينة من بدئها إلى نهايتها. هنا المدينة تصب. ومن هنا يبدأ بناؤها أو خرابها. وسط السوق جامع شامخ بمئذنة لولبية لا تختلف عن لولبة السوق. في السوق تُباع وتُشترى الأشياء، والناس أيضاً. وفي المسجد تتم طقوس ومراسيم الغفران والتوبة والتطهير.

كان الفلاح الفقير يتقدم حذِراً في السوق بحثاً عن طائر بوم سجين. وكلما سأل كان التجار ينهرونه ويسخرون منه. كان يتقدم غريباً في عالمٍ مُبهر تزحمُهُ الأكتاف والأذرع والأحواض. سأل رجلاً بدوياً فقيٍراً مثله: أتعرف أين تُباع الطيور السجينة؟

أشار البدوي إلى منعطف شارع: هناك.

تقدم وانعطف. واجهه مخزن كبير عُلِّقت على زجاجه صورة الملك قربها آية: المال والبنون زينة الحياة الدنيا. دخل الفلاح المخزن. كانت هناك أقفاص من زجاج وحديد وداخلها طيور مختلفة ملونة وجميلة. كما كان المخزن زاخراً بالأقمشة والتحف والأثريات وسائر الأشياء التي تُباع. سأل الفلاحُ التاجر الضخمَ الجثة: ألديك طائر بوم؟

قال التاجر: لدينا كل شيء.

- ما هو ثمن طائر البوم؟

- لك أنت بخمسين ليرة لغيرك بسبعين. أنت رجل فقير وتتسحق المكارمة.

ذُهل الفلاح: العمى. بسعر كيس طحين. لعن طفله في سره. وعندما انتبه لتسرعه في الشتيمة. قال لنفسه: سامح الله الأطفال كم هم خياليون؟

في تلك اللحظة دخل ضابط كبير موشّى بالأوسمة. قفز التاجر ككلب مذعور. حيّا الضباط مطأطئاً: أهلاً. أهلاً. آنستم. شرّفتم يا بيك. أمر يا سيدي أمر. أهلاً وسهلاً. المحل محلك. نحن بخدمتكم. قدم له كرسياً: شرفوا سيدي شرّفوا. أهلاً. أهلاً.

نادى التاجر الخادمَ: يا ولد. تعال شوف معلمنا ماذا يريد أن يشرب. سيدي بارد أم ساخن؟

قال الضابط بشموخ متغطرس: «نسكافيه مع كاتو».

قال التاجر: كانت معركة مشرّفة حقاً. والله يا سيدي رفعتم رأسنا عالياً أدام الله لنا هذا الحكم ومدَّ الله بعمر مولانا.

قال الضابط وهو يشعل سيجارة «كَنْتَ مهرَّبة»: لَقَّنَّا العدو درساً لن ينساه. سقطت لنا طائرات واستُشهدَ أبطال ولكنّا ردَدْنا العدو على أعقابه خاسراً دون أن يحقق أهدافه.

كان ياسين الفلاح جامداً كحجر، يرى ويسمع واقفاً. جيء بالنسكافيه والكاتو. شرب الضابط وأكل. ثم انسحب مع التاجر إلى غرفة داخلية بقيا فيها وقتاً ثم عادا ضاحكين مستبشرين.

في غيابهما قصَّ الخادم قطعاً قماشية ولفَّ تحفاً ثمينة، ثم نقل الطرود إلى سيارة المرسيدس السوداء الجاثمة على الباب.

وهو يغادر المخزن التفت الضابط فرأى طائر البوم الحزين نائماً في قفصه. قال للتاجر: حسَّان أوصاني على طائر بوم. غريب أمر هؤلاء الأطفال: لماذا يحبون الطيور؟

صاح التاجر بالخادم: يا ولد. احمل هذا القفص إلى سيارة معلّمنا هدية.

ذُهِلَ الفلاح من المشهد. حين رأى الطائر السجين يغادر المخزن أحس بانقباض مرير.

تمتم وهو يغادر: حتى الطيور يأخذونها أيضاً!

القتلة

كبر وافد ياسين. انتسب للكلية الجوية. بعد ثلاث سنوات تخرج طياراً من الدفعة التي سميت باسم الشهيد جرجس حناوي.

وهو يرتفع بطائرته الرائعة ويقيم ألعابه وتمريناته، كان يشعر بأنه صقر حقيقي، لكن ذلك الصقر لم يكن يرى من الجو غير السوق وقصر الملك السعيد.

في نهار مضيء، عذب كجسد امرأة، بهي كبحر، ارتفع الصقر بطائرته ومعه صواريخه ورشاشه. حوَّم قليلاً في الجو ثم اخترق جدار الصوت وانقضّ على السوق وراح يمطره بالصواريخ والرصاص. أصاب جزءاً منه وهدم مئذنة الجامع ثم ارتفع واتجه نحو قصر الملك. انقضّ مرتين. هدم القصر، وعندما ارتفع ليعود اعترضَتْهُ أربع طائرات. طلب إليه القائد أن يستسلم. رفض. إنه يتجه الآن صوب الجبال العالية ليقدم لأبيه تحية الوداع.

كان يطير فوق الجبال المشرفة على البحر، عندما انهالت عليه الصواريخ والرصاص. الطائرات الأربع اشتركت في قصفه. وكما يليق بالصقور أن تموت في أوقات الضيق تناثر وافد ياسين مع طائرته شظايا فوق قِمم الجبال التي تواجه البحر.

حصين البحر 1973

البرابــرة

منذ هبطت هذه المخلوقات الغريبة واستولت على المدينة تحوّلت أحلام الناس إلى كوابيس. لم تعد الزهور تقوى على التفتح ونشر عبيرها. صمتت الطيور وبدأ الفجر يتأخر في الشروق، وصار عسيراً أن يتعرف الإنسان على أخيه الإنسان.

قال الرجل: أمس كنت تصيحين كَمَن يُذبح أو يسقط في هاوية. وتابعت المرأة: ألم ترهم؟ لم يكن ذلك حلماً. كانت عيناي مفتوحتين جيداً. رأيتهم يقفون في النافذة. كانوا يرتدون ثياباً تشبه الأكفان وطوال الليل ظلوا يمارسون معي شتى أنواع التعذيب.

وقال الرجل: رأيت نفسي في مكان بعيد مطوَّق بالأسلاك الشائكة. ساحة المكان أرض من الشوك والحجارة. لابد أنها تشبه ثكنة. كانت معي امرأة ومعها طفل. فجأة أحسست أنني مطوَّق فقلت للمرأة أن تخرج. رفضت المرأة وصممتْ أن تبقى. قلتُ: ستصابين أو تموتين. قالت: سأظلّ معك. إنني أذكر لون فستانها الزهري البديع ولون شعرها الفاحم وعينيها. كانت على بعد أمتار قليلة مني وبدأت تقترب نحوي. ورأيتهم ينحدرون من تلة مجاورة مشرفة على الساحة. كنت أعرفهم

جيداً، وأستطيع أن أسميهم واحداً واحداً. كانوا مدجّجين بالحقد وفي أيديهم قنابل. وبدأ انحدارهم نحو الباحة، وصحت بالمرأة أن تأخذ طفلها وتمضي. غير أن القنابل بدأت تنفجر واندلعت النيران، ورأيت وأنا في غمرة المعركة كيف كانت المرأة تزحف منكبة فوق طفلها والنيران مندلعة في فستانها الزهري وشعرها، وأنا أقاتل وحيداً وليس باستطاعتي أن أساعدها. ثم رأيتها تطير فوق الساحة متوَّجة بالنار. كانوا يطاردونها وهم عراة، وهي تصيح وتستنجد، ورحت أقذف بالقنابل نحوهم لكن القنابل لم تصبْ أحداً. كانوا قد ابتعدوا، وفي غمرة هذا الرعب استيقظت.

وتابعت المرأة: كنت أهيب بك أن تستيقظ لتراهم. لم يكن ذلك حلماً البتة. أقسم أنني كنت مستيقظة لكنني لم أكن أستطيع الكلام إلا بحشرجة متقطعة. كانوا هناك وكانت معهم ألعاب عجيبة. وحاولت أن أُفهمهم أن هذه غرفة نومنا ولا يصحّ من ضيوف طيبين أن يدخلوا غرفة النوم، ورأيتهم ينظرون إلى بعضهم ثم يبتسمون بازدراء وأطلقوا في البيت بعض الألعاب. كانت نوعاً من الشهب المضيئة، راح يتساقط منها عيون وأرجل ورؤوس وأعضاء تناسلية ذكرية تقطر دماً. ثم رأيت البيت يتسع ويمتد، ورأيتهم يخرجون من الجدران والسقف والفراغ، وشاهدت آلات التعذيب تتدلى من سقف البيت ومن الحيطان وقد عُلّق فيها أطفال ونساء ورجال، ثم صار البيت ساحة كبيرة وامتلأت بالبشر. كان الناس بلا ملامح وبدا أن خوفاً سرياً رهيباً قد كبَّلهم. وسمعت همسة رجل يسأل آخر: لماذا نحن هنا؟ ورد الآخر بتوجس: لإجراء التجارب ومشاهدتها.

وجيء برجل وامرأة وطفل مثلوا أمام محكمة. كان الغرباء

يحيطون برجل طويل قاسي الملامح يوحي بالبلادة. وسأل الرجل القاسي المرأة: أهذا زوجك؟ فأنكرته. وسألها عن طفلها فأنكرته. ثم سأل الرجل عن زوجته وطفله فأنكرهما. وسأل الطفل عن أبيه وأمه فاعترف أنّهما أبواه. وصاحت المرأة بأنه يكذب. ليس هذا أبوه، أبوه قُتِلَ في السجن. وحدث هرج في الساحة، وأمر الحاكم أن يؤتى بالرجل فأتوا به. وطلب من الغرباء أن يباشروا عملهم. كبّلوه بالسلاسل وطرحوه في الساحة وبدؤوا يصبون عليه سائلاً لم يلبث أن أذابه. وقذفوا بالمرأة إلى بعض الغرباء عرّوها ومارسوا معها الجنس. أما الطفل الذي بكى فقد قدموا له بعض الألعاب هدية.

وقال الرجل محاولاً إخفاء فزعه الداخلي: كنّا في أرض غريبة مزروعة بشجر الزيتون والغار. كانت الأرض حمراء اللون. سكون غريب يخيم على المكان. لابد أنه المكان الموعود الذي رغبنا أن نلتقي فيه. وكانت هناك هضبة خضراء شجرها غريب. وكنا نتجه عبر هذه الأرض العجيبة باتجاه الهضبة. كانت بيننا مسافة. وسألتها: لماذا لا تقتربين مني؟ وابتسمت وشعرت بأنها لا تستطيع. وقلت بأن زمن افتراقنا طال وقد آن أن نلتقي. وحاولت أن أشرح لها حزني ولهفتي لأن أمسك بيدها وأن أحدّق في وجهها وعينيها بعد هذا الغياب. وبدت لي عذبة كعهدي بها لكنها كانت مُتعبة أيضاً. وظلت بعيدة، وحاولت أن أحدِّثها عن الطيور الخضر التي كنت أراها في أحلامي والتي كانت تهرب مني. وخيل إليّ أنها أشارت إلى اختفاء الطيور وموتها. وكنا قد وصلنا إلى مشارف الهضبة هي اتجهت نحو اليمين وأنا نحو اليسار. فجأة ونحن نرتقي طريقاً مظللة ظهر الرجال الغرباء يطاردون حُمُراً وحشية عبر السهول، وأشارت

رافعة إصبعها باتجاه المشهد الذي بدا تحت أصيل الشمس كلوحة بديعة نابضة بالألم. كانت الحُمُر الوحشية قد أُنِهكَت وخُوصرتْ في مضيق ثم بدأت عمليات قتلها وسلخ جلودها. كانوا يضربونها بفؤوس حادة على جبهتها وكانت الرؤوس تنشقّ بسهولة.

وصرخت بي: ليست هذه حُمُراً وحشية. انظر إلى دمها وإلى قلوبها! ورأيت الشفق مغطى بالدم والقلوب التي تقطر والقمصان الرقطاء. ورأيت الأرض وقد ازدادت احمراراً والشجر يغور في الأرض. وقالت: لن نلتقي. وقلت: إلى أين تذهبين؟ وردّت: سأضرب في تيه الأرض. واختفت الهضبة ثم ظهر البحر. آه. يا للون البحر كم كان مفزعاً.

وتابعت المرأة: ولم يكن ذلك هو كل شيء. وقف الرجل الطويل ذو الملامح القاسية وقال: لم يعد باستطاعة أحد أن يتحرك إلا ونعرف لماذا. ولم يعد باستطاعة أحد أن يتكلم إلا ونعرف لماذا. ولم يعد باستطاعة أحد أن يتزوج إلا ونعرف متى ولماذا. أنتم الآن في مدينة العلم والإيمان بقوانين الدولة التي تعرف كل شيء والتي تسهر على راحة المواطنين. انتهى عهد الفوضى وبدأ عهد التنظيم. أحصينا عدد السكان وأحصينا عدد البيوت. كل بيت أصبح له إشارة حمراء أو خضراء. كل مواطن صار له رقم مُفرد أو مزدوج. الإشارات والأرقام هي لغة العلم الحديث. أصبح بإمكاننا معرفة كم حريرة يستهلك المواطن، وما هي أنواع الأطعمة التي عليه أن يتناولها. وما هو عدد ونوع الأطفال الذين سيولدون. كذلك طبعنا للمواطن قاموساً للكلمات، فالكلمات الزائدة عن الحدّ لا معنى لها وستؤدي بالضرورة إلى الخوض في موضوعات تتعب المواطن وتضر بسلامة الدولة.

المهم أننا لمصلحة الوطن والمواطن أصبح المواطن مقنَّناً. أخذت الدولة على عاتقها تربية المواطن تربية حديثة. يأكل ويشرب وينام ويتغوط ويضاجع بقوانين التقنين. طبعاً هناك مواطنون جامحون يفكرون أكثر مما ينبغي، ويتحدثون أكثر مما ينبغي، وهؤلاء مواطنون فائضون عن الحاجة ويضرون بالمصلحة العامة، لذا كان لابدّ من التخلص منهم حفاظاً على مصلحة الوطن والدولة. المواطن الذي تخلصنا منه قبل لحظات هو واحد من هذه النماذج الضارة. طبعاً لدينا أساليب مختلفة للقضاء على أمثال هذه الحشرات الفائضة.

وأوعز الحاكم إلى الغرباء أن يعرضوا على الجمهور كيفية التخلص من الناس الذين أسماهم الجامحين.

ورأى الجمهور بيوتاً فيها ناس تتحرك شفاههم بكلمات مبهمة، ثم رأى هؤلاء الناس يتوقفون عن الكلام بغتة ثم يتحشرجون ثم تسقط رؤوسهم فوق صدورهم ويصمتون إلى الأبد. وعرض الغرباء آلات خاصة وُضِعَت خارج البيوت والغرف. كانت هناك أنابيب تمتد إلى داخل البيوت من الجدران أو السقوف وظيفتها امتصاص الأوكسجين من الداخل. كان الذين في الداخل يموتون اختناقاً بعد أن يتلوث الهواء بغاز الفحم الخالي من الأوكسجين.

وعلّق الحاكم: هؤلاء الجامحون كانوا يتحدثون بكلمات فائضة عن القاموس التقنيني. ومن المعلوم أن الذي يتحدث كثيراً يتعب كثيراً، ونحن حريصون على راحة المواطن والدولة. والدولة العصرية العلمية هي التي تفكر عن المواطن بالأمور الجوهرية والحساسة. الراحة والسعادة والتنظيم هي مهمة دولتنا تجاه مواطنيها. بهذه الطريقة يتكون المواطن الصالح.

المواطن المؤمن بسلطة الدولة وقدرتها على التقنين لمواجهة أعدائها المتربصين بها.

عندما اقترب الرجل من المرأة ليُبدِّدا خوفهما ويحتميا منه، داهَم الغرباءُ البيت بوجوههم القاسية الخالية من الرحمة. أمسكوهما وخرجوا بهما مكبلين إلى الساحة.

كان الناس هناك ورأوا الحاكم يقهقه. قال الحاكم: هذان نموذجان للجامحين. كانا يحلمان في الليل ويثرثران بأمور سرية لا تليق بالمواطن الشريف المقنن ولا بدولة العلم. لقد خرجا بأحلامهما عن القاموس المحدد. آلاتنا ضبطت أحلامهما. رجالنا الشرفاء الأذكياء المسؤولون عن حماية الوطن، وضعوا لكل مواطن آلات خاصة في مكاتب العمل والسيارات والحدائق والمتاجر والشوارع والمقاهي والخمارات وتحت الأسرّة، مهمتها أن تُحصي وتسجل كل ما يحدث في هذه الأماكن. هذان الجامحان كانا يحلمان بطريقة غير شرعية. إنهما يعرفان التنظيم الجديد للدولة وعاقبة الجموح ومع ذلك سمحا لأحلامهما أن تشتطّ. لقد كانا يعلمان أن آلاتنا تنقل بطريقة الكترونية كل حركة وكل همسة وكل مشروع تفكير يمكن أن تهجس به النفس. أجل. النفس الأمارة بالسوء والتي ترغب الدولة في تنظيم جموحها وإعادتها إلى الصواب. من أجل هذا استحقّا بجدارة هذا العقاب الجديد الذي ستشاهدونه.

استغرقت محاكمة الرجل والمرأة دقائق قليلة. رُكّب في رأس كل منهما كلّابة إلكترونية لها خاصية تعطيل مركز الذاكرة. وبعد أن سحبت الكلابتان من الرأسين سأل الحاكم الرجل: أتعرف هذه المرأة؟ نظر الرجل إلى امرأة غريبة تقف جواره ونفى برأسه. وسأل الحاكم المرأة: أتعرفين هذا الرجل؟

رنت المرأة إلى رجل غريب يقف بجوارها، ثم نظرت إلى الجماهير التي غلّها الخوف. ارتد بصرها نحو الحاكم. حدقت فيه طويلاً ثم بصقت في وجهه وسقطت ميتة.

دمشق *1973*

وشاح وردي لرجل وحيد

1

ما كان أحدٌ ليصدِّق أنَّ ما حدث سيحدث على ذلك النحو؛ لا لأن الذي حدث كان رهيباً وصاعقاً، إنما لأنه حدث في غير مكانه وغير زمانه على ما يبدو. لقد كان صائباً وخاطئاً في آن معاً.

يهبطُ الليل على بيروت وشيعةً من النّيون والدويّ. وحده البحر يبدو غريباً وقصيَّاً في الطرف الغربي منها.

وهو يعبر الشوارع وحيداً، يقول عبد الله يحياوي: ما عادت بيروت هي بيروت وعليك يا عبد الله أن ترحل قريباً إلى بلاد أخرى.

من العالم المجنون والعاقل، لا يرى غير صخرة. صخرة الروشة هناك في المحيط الأخضر.

عندما يسأله رجلٌ عابر عن الساعة تغيب الصخرة التي تبدو في البحر. ينتبه: آسف. ليس لديّ ساعة.

ثم يتابع سيره على كورنيش البحر. البحر الذي يصخب.

إنه يعرف إلى أين يتجه، لكن ما يجهله: هل يصلُ أم لا!

كانت بيروت محطة. الاستراحة فيها طويلة، لكنها لم تكن المرفأ الأخير.

هنا في هذه الغابة يمكن الاستتار زمناً. وهنا يمكن أن ترتدي قناعَ ذئب أو أرنب عندما يُنفى البحر.

2

وفيما مضى كانت بيروت للعابرين جميعاً، محطةً مضيئةً وصاخبة. محطة قطار أو محطة مطار. مصرفاً أو مرقصاً أو امرأة أو زجاجة ويسكي أو ملاذاً.

وهنا فيما مضى كان الحبّ جميلاً والرقص جميلاً، وكانت السماء والأرض بلون العسجد. أما الآن فإن البحر يبكي ويغني حول اندلاع النار.

كان عبد الله يحياوي يعرف الغابة جيداً في هذا الوقت. الوقت المنذر بعاصفة غيومها تتجمّع في أفق البحر.

إغماضة عين في لحظة غفلة، ويتناثرُ الدماغ من الخلف.

وهكذا اختار عبد الله قناع الذئب. ينام بعين ويفتح عين الحراسة الأخرى.

ـ هويتك!

فجأه الرعبُ الصاعد إلى عينين محرورتين وصغيرتين.

كان الجنود بقبّعاتهم الحمراء ومسدساتهم وبنادق «الناتو» يسدُّون الشوارع.

ـ تفتيش!

هبط الركاب من سياراتهم العمومية وتحجروا طوابير. الجميع أخرجوا أوراقهم الثبوتية بهدوء التماثيل.

ـ فلسطيني!

ـ الجواز معك.

ـ أهذا اسمك الحقيقي؟

أومأ برأسه أنْ نعم.

3

كان جواز السفر مزوّراً كهذه المدينة الماضية. وحده البحر وصخرة الروشة، كانا في صلابة الحقيقة.

منذ عشرة أعوام بدأ الإبحار عن أرض بعيدة. الأرض التي هزَّت العالم يوماً، ثم سقطت بغتة تحت أحذية الجند.

في المقهى الصغير سأله أحد الشباب المتحلِّقين حوله: ما الذي تفعله في هذه البلاد؟

وأجاب عبد الله: السؤال خطأ. إنّنا نفعل. ليس للفرد قيمة كبرى في عصر الجماهير.

ـ التاريخ لا يغيِّره فرد.

ـ ولكن هل تُلغي دور الفرد في التاريخ؟

ـ هل تحلم بتغيير العالم؟

ضحك وهو يطوِّحُ ذراعيه في فضاء المقهى. فجأة صرخ كنمر، مقوّساً أصابعه التي تشنَّجت: نحن. قلت نحن نحلم بتغيير العالم.

ابتسم محدِّثه بسخرية. ابتسم عبد الله يحياوي بزهو. ومن جهة البحر أقبلَتْ ريحٌ رخاء ممزوجة بعبير الوطن البعيد.

4

كانوا يعتقدوا أنها نائمة ومتعبة من كثرة الرقص والمجون وتراكم الأرصدة. لكنها عندما استفاقت على صوت الرعد المشرَّد والمذبوح، فاجأتهم بصواعق من الدم والموت.

وكان الموت عربياً والدم عربياً في عصر داود والكيمياء والبترودولار.

في مركز البوليس سأله المحقق عن اسمه فقال: عبد الله يحياوي.

ـ وما اسمك الحقيقي؟

ـ وهل يكون للإنسان اسمان؟

قال البوليس: طبعاً. اسم أصلي واسم حركي.

قال عبد الله: أنا لستُ مقاوماً.

سخر البوليس: اخرج من هذه اللعبة القديمة. عندما صفعه المحقق بظاهر قبضته أحسّ شيئاً حارّاً يتدفق من فمه.

قال عبد الله بمرارة غاضبة: كنتُ مقاوِماً وخرجت. الآن لست مع أحد.

5

لون البحر بلون الوطن القديم، وكما البحر أخضر، وديع في

وقت الصحو، يتوحش ويثبُ تحت العاصفة، هكذا كان الوطن البعيد.

لم يشترك عبد الله في حرب التحرير، لكن أباه وعمَّه استُشهدا فيها. أبوه مات تحت التعذيب، وعمه قُتِلَ في جبال وهران.

كان نشاطه السياسي في الجامعة مثيراً. موت أبيه أصابه بهزة وفي ساحة السوربون صرخ في الحشد الطلابي: فلنشعلِ النيران في وطن الغزاة.

ويومها اعتقله البوليس الفرنسي، وحطَّم أسنانه في مركز التحقيق.

هو كان يعتقد أنّه منذور لأمر عظيم.

هَبَطَ عليه هذا اليقين بعد سلسلة من القراءات النظرية والاعتقالات واستجوابات الأقبية المظلمة.

وكان موقناً أنه يسير على صراط الضوء والموت. كان يتكلم ويتكلم. لغة جديدة وغريبة وعميقة، يسمعها الناس، لكن النّدَرَة كانوا يفهمونها لاستعصاءاتها المعقَّدة.

وفي حلقات الحوار والعمل كان يعتقد أن بمقدور البحر أن يَحُتَّ الصخر القاسي مع الزمن. الصدمة القوية للتيار يمكن أن تُعيدَ الصواب أحياناً، وصوت دويّ البحر في أوقات الإعصار لابدّ أن يبقى في الذاكرة طويلاً.

- أنت تتكلم لغة غير مفهومة. اعترض شاب على عبد الله في إحدى الحلقات.

وسأل: وما هو الغموض فيها؟

وصحح الشاب: عنيت لغة مضادة غير مقبولة!

ـ وممن هي غير مقبولة؟

ـ من الناس العاديين.

ـ ولماذا لا تقول: إنها مرفوضة من الطغاة؟ الناس الفقراء البسطاء يدركون بالتجربة والمرارة والاستلاب كل شيء. العمال أساس الشعب وأنا أتكلم لهم لأنهم آلهة المستقبل.

واشتعل ببرقه القادم فوق خيوله الجامحة نحو الأقصى: إن للعمال ذاكرة مضيئة كالبرق وحادّة كالمقصلة. فيما مضى استُغلوا وأُهِينُوا ومازالوا، وهذا راسخ في أعماقهم رسوخ الجذور في أعماق الأرض. عندما تقوم سلطتهم، وهي آتية، سيكنِّسون الأرض من طغاة رأس المال ومن الجلادين. كل السلطة لابدّ أن تكون لمجالس العمال.

6

ومن وهران إلى باريس إلى روما فمصر، ثم بيروت أخيراً. رحلة قاسية، لكنها مثيرة تخللتها اعتقالات وضرب ومحاولة اغتيال.

وفي باريس كان العمل، كان عمل عبد الله بين الطلبة والعمال المهاجرين. هناك امتزج الفكر بالعمل وتمَّ الاختيار.

وإذ انتهت حرب التحرير، يعود عبد الله إلى الأرض التي تحرّرت بالدم ورأسه يشعّ بأمواج من الفرح.

في كل عطفة وشارع شاهد عبد الله يحياوي المطرَ

والعشبَ والموسيقى. كانت الجزائر تموج من أقصاها إلى أقصاها وتعلو كالشجر. لقد خرج الشعب أخيراً من المعتقل الكبير، وها هو ذا بفيضاناته يجتاح المدنَ والأرياف مهلِّلاً للنصر الكاسح. لقد اندحر الغزاة وأشرق فجر الشعب بعد ليلٍ دموي عميق.

بعد ثلاث سنوات اغتيل عصفور الفرح من الداخل بطلقة بندقية، وصمت البحر.

نُفِي عبد الله وآخرون إلى ما وراء البحر، وكان حزيناً جداً.

قال لنفسه الحزينة وهو يغادر: لابدّ أن نعود مرة أخرى. لا عصافير هذه المرة ولكن صقوراً تهبط من ذرى الجبال.

من منفى إلى منفى، والبلاد ضيِّقةٌ ومطوَّقة، والرعب يكتنف المنعطفات والليالي في كل بلاد العرب، وعبد الله يحياوي يتوهم أنه أينما هبط سيُشعل الحرائق. في أعماقه تتأجج نار مقدسة أبدية التوهج، تتوق لأن تحرق المدن والغابات. في القاهرة سأله المحققون: لماذا أنت هنا؟ وأجاب: لأنها أرضي وبلادي. ليس للعمال وطن محدّد.

- تتحدث باسم العمال وأنت بورجوازي صغير!

- التاريخ مستقبلاً للعمال.

- والطلبة. هل أنت معهم؟

- ما فعلوه هنا رائع. لقد حرَّكوا ضميرَ مصر لكنهم ليسوا المستقبل.

وإذ سأله المحقق: هل تؤمن بالنظام القائم؟

ضحك ساخراً: أنا لست مؤمناً بأي نظام يعتقل الشعب. مثل هذا النظام البوليسي يعادي العمال.

قال المحقق: أنت وقح ومشاغب، وغريب عن البلد. وفي الصباح قذفوه باتجاه الحدود.

7

وبيروت امرأة مصنوعة من الحجارة والسمسرة والجواسيس والقتلة واللصوص، افتضَّ بكارتها، على مدى أكثر من ربع قرن، التجار والسياسيون المحترفون وأمراء البترول وملوك الطوائف، ثم ألقوا بها جثة كريهة على شطّ البحر الأبيض المتوسط.

هكذا كانت في الأزمنة الرديئة، قبل أن تتعمَّد بطهارة نارها المقدسة.

خارج هذه المدينة يسكن عبد الله يحياوي. قبو لا يرى الشمس ويختنق بالرطوبة.

إنه يعيش بين ركام من فوضى الكتب والمجلات والجرائد، وقوافل الصراصير والنمل والناموس، وما تيسرَّ من مخلوقات الله المنحطّة والصديقة.

داخل هذا الكهف السرّي يقرأ ويكتب ويلتقي بالحلقات والمريدين. بنفسه يطهو طعامه ويغسل ثيابه ويمسح الأرض. ينام متأخراً ويصحو باكراً. يمارس رياضة الصباح ويبتهج بموسيقى تشايكوفسكي.

ـ أنت وحدك؟ يسأله صديق دخل فجأة. يضحك عبد الله: لا. طبعاً. ثم يشير نحو الكتب والصراصير التي تتبختر.

ـ جئت أتحدث إليك بموضوع.

ـ ما هو؟

ـ المقاومة.

كان مصطفى الوحيد الذي يركن إليه رغم خصامه الدائم معه.

ـ لماذا لا نعمل مع المقاومة؟ سأل مصطفى.

قال عبد الله: أنا لا أفهمك. وضّح!

قال مصطفى: أعرف نهاياتك وآفاقك القصوى. لكن هؤلاء هم ما تبقى من شرف هذه الأمة.

ـ لكنهم قبائل كما ترى!

ـ ننخرط معهم فنغتني بتجربتهم ونغنيهم بأفكارنا.

ـ العربان كلهم قبائل. ثم ما معنى أن نظلَّ على الحياد بينما النار على أطراف الغابة؟

ـ لكننا سنخسر.

ـ ماذا؟

ـ عنيتُ سنفشل.

ـ بعد الفشل نعود إلى مواقعنا.

ـ اسمع. لقد اتفقنا ألّا نهادن. الثورة أو لا شيء على الإطلاق.

سَخرَ عبد الله. جمحت خيوله فوق الأرض والتاريخ وشروق الشمس وغروبها، فقال: ها. ها. يا لليسار الطفولي! إنهم مُلتاثون جميعاً بلوثة الإقليمية. هم يطرحون الثورة ضد إسرائيل أما نحن فنقول بالثورة داخل عواصم العرب ضد أنظمة فاشية تقمع وتغتال الشعب. هذه هي المسألة.

ـ ولكن ليس الاستراتيجي هو كل شيء. قال مصطفى. وقال عبد الله: الاستراتيجي هو الأساس.

كان الآن غضباً. نَفَرتْ أعصابُه حتى صارت كسهمٍ في قوس موتور.

عندما ارتدت بيروت وشاح الدم والمخاض، ذُعِرت الفئرانُ والسلاحفُ وخفافيش الليل، وسائر هوامِّ الأرض الليلية، فلجأت إلى جحورها. تحت جناح الليل الهادر يدويّ الرعب، بين فسحة الهدوء التي رانت على الشيّاح وعين الرمانة، تأبط مثقفو أرصفة بيروت حقائبهم وأرصدتهم ونساءهم، ومخطوطاتهم الزرقاء، واحتجاجاتهم الدونكيشوتية، ثم ولّوا الأدبار من بيروت التي ابتدأ حريقها.

في المطارات ومقاهي أرصفة باريس ولندن وروما ودمشق وبغداد، تحدّثوا باكتئاب عميق للصحف والإذاعات وشبكات التلفزيون عن وطن المحبة والجمال والهدوء الأزرق الذي سقط بين براثن حرب الطوائف.

عبد الله يحياوي وهو على وشك المغادرة، تساءل بحزن أحصنته الجامحة: غريب! لماذا حربُ مجالس العمّال لم تشتعل؟

8

في قواعد المقاومة أمضى عبد الله شهراً. كان يأكل وينام ويتحرك مع الفدائيين، وفي الأماسي يعقد الحلقات ويناقش بحرارته المعهودة. كان ممتلئاً بالحيوية والنشاط والثقة في الأيام الأولى. خيل إليه وهو يعيش لحظات الممارسة الحقيقية على الأرض الحارَّة النابضة بالفعل والخلق، أنه يدفع عجلة التاريخ إلى الأمام.

غير أن المتوهِّمَ أنه منذور لأمر عظيم هوذا يصطدم بالتاريخ مرَّة أخرى.

كان الفدائيون طاقة لا تُحَدُّ من الحماسة والرغبة الكامنة للوعي. لكن القيادة كانت شيئاً آخر.

عندما جَمَحتْ خيولُه فامتطاها ذاهباً نحو الآفاق التي يراها، اصطدم بالقيادة التي وسَمها بالبيروقراطية والإقليمية والمتعالية، والمنشّقة على نفسها.

صرخ وهو يتراجع: هذه القيادة حفَّارة قبور. إنها متواطئة مع الأنظمة. العدو يجثم في قصور العواصم العربية، وهذه القيادة لا ترى غير إسرائيل. إن واجبنا كجزء من الطبقة العاملة العربية وحلفاء لها أن ندرك أن حرب الشعب وحدها التي تحرِّر فلسطين وتقيم سلطة الثورة. لابدّ من فيتنام أخرى وإلا فليحمل كلٌ منّا كفنه.

يوم غادر عصور الاستقرار، ومواسمَ الهدوء الجميلة، والمرأة القديمة، سألته امرأة العصور القديمة: ولكن ما هذا الذي تفعله بنا وبنفسك؟ تشردنا وتتركنا وحيدين. تلفّ حبل المشنقة حول رقبتك وترحل في تيه الأرض. أهذا هو العمل الثوري؟ ويومها أفعَمَه حزنٌ بثقل الأرض: عليكِ أن تكوني قوية في عصور الصراع. المستقبل قاتم ونحن نذرنا أنفسنا للضوء والموت ولن نستسلم إلّا واقفين.

- أحقاً أنك ستهدم بيتك وأسرتك وترحل؟

- أسرتي في كل مكان. سيعتني الأصدقاء بكم في أوقات الضيق.

انتحبت المرأة بنشيج سمعته الأرض والسماء والحزن القادم. قالت تحت مطر الدمع: لا أصدقاء لك. لا أصدقاء. إنهم

يسمُّونك المجنون والمثالي والغريبَ. أنت وحيد وسط النيران وعندما ستحترق لن يبكيَ عليك أحدٌ إلا نحن. لا أصدقاء يا عزيزي، لا أصدقاء في هذا الوقت الصعب.

وفي الليلة التي تسلّل فيها من البيت ترك للمرأة كلمة: الآن أترككم. في الرأس صوت العواصف وأنين الجرحى والمعتقلين والمنفيين. لابدّ من الإسهام في أي عمل ثوري أينما وُجِدَ. هذا الوطن إمَّا أن يكون للعمال أو لطغاة رأس المال. أنا الآن، وإلى وقت النصر أو الموت، مع القضايا التي تبدو خاسرة. عندما يكبر أطفالك أقرئيهم أنّ أباهم لم يكن نذلاً ولم يركع. صوني نفسك عن المذلة، وصوني الأطفال بحدقةِ عينيك الجميلتين. تجاوزي الحزنَ إلى الغضب. أنتم في القلب أبداً.

وفي تلك الليلة العاصفة امتدّ مع الريح.

9

يهبط الليل على بيروت سماء من الحزن. الليل يوشِّحُ البحر، والدويُّ الرهيب يخترق سكينة الشيّاح وعين الرمانة. الشيّاح: المقاومة، وعين الرمانة: الفاشست. ويهبطُ الليل على الغريب العابر في هذا الغسق العاصف.

يتناءى الغريب. يتناءى الثوري الجامح. تجمح خيولُهُ نحو آفاق لا يحدُّها البصر. يحلم وهو يرحل عن بيروت بكومونةٍ عربية لا تسقط.

وتقول بيروت تحت القصف: أنا الشجرة المباركة التي نضَجَ ثمرُها باكراً.

بيروت *1976*

الفهرس